Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخطابة

بين النظرية والتطبيق

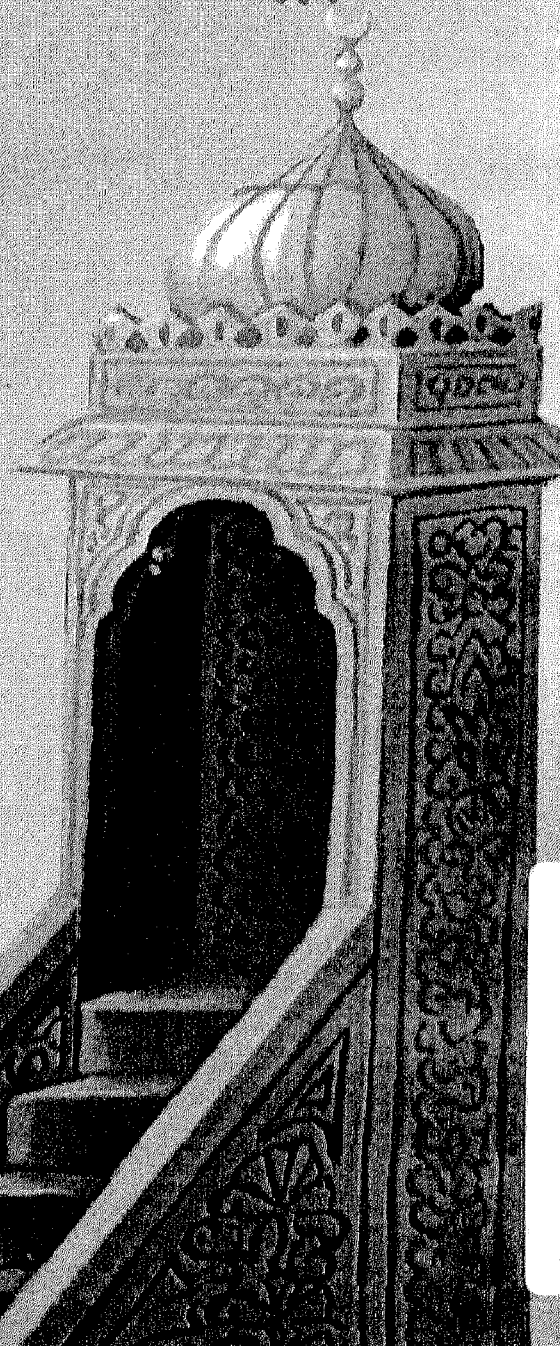

د/ محمود محمد عمارة

الأستاذ بجامعة الأزهر

توزيع

مكتبة الإيمان بالمنصورة

أمام جامعة الأزهر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخطابة

بين النظرية والتطبيق

د. محمود محمد محمد عمارة

الأستاذ بجامعة الأزهر

توزيع

مكتبة الإيمان

المنصورة - أمام جامعة الأزهر

ت : ٣٥٧٨٨٢

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طبعة خاصة بالمؤلف

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ ١٩٩٧م

توزيع

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع

المنصورة ـ أمام جامعة الأزهر

تليفون ٣٥٧٨٨٢

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــــد:

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين. سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـــــد:

فلا أذكر أننى قرأت قبل اليوم كتابا يعالج فن الخطابة... ولقد كان الأمل فى أن أكون خطيبا يلح على خاطرى دائما:

فبينما كان يحلم رفاقى أن يكونوا مدرسين أو مهندسين. ضباطا أو مخترعين.. كانت صورة حياتى المقبلة: خطيب. يعتلى منصة.. وبين يديه جماهير ينصتون.. ويتأثرون. إلا أن هذا الأمل لم يأخذ سبيله إلى التحقيق. عن طريق الكتب. أو قاعات الدرس.

لكننى كنت أنتقل ـ مدفوعا بهذا الأمل ـ من هنا إلى هناك ـ لأستمع إلى هذا الخطيب أو ذاك.. وربما طال سفرى. واشتد عنائى. لأمثل ساعة بين يدى خطيب فذ أرى فيه مثلى الأعلى.

وإنى لأعود من رحلاتى قرير العين بما بذلت من مال. وأنفقت من ساعات. من أجل ساعة واحدة.. أستمع.. بل أستمع فيها بخطيب: أتعلم منه. وآخذ عنه. وأغذى روحى الظمأى بوقود من المعرفة على الطبيعة.. وصولا إلى مركز مماثل.. أطل منه على الناس خطيبا يتحمل مع غيره مسؤلية التوجيه.

ولقد تأكد لى خطورة أثر الخطيب فى دنيا الناس.. وما يمكن أن يبثه فى قلوبهم من طاقات تبعث الأمل. وتحض على العمل.

وإذا مضى القائد العسكرى مرفوع الهامة.. ومن خلفه جنود يقتحمون معه غمرات الموت.

وإذا استهوت هذه الصورة ـ بحق ـ قلوبا تعد نفسها لهذا الموقف.. فإن موقف الخطيب الناجح يظل أبرز أثراً. وأشد خطراً..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إنه الكتيبة التى ترتاد للجيش الطريق.. تمهيداً.. وإعدادا. يمكن القائد العسكرى من إحراز النصر. بما منحه الداعية من زاد تنطلق به النفوس إلى غاياتها فى ثبات.

ذلك بأن القواد.. والدعاة كلاهما رفاق سلاح فى معركة واحدة: يتكاملان. وإذا تدخل السيف أحيانا فحسم المعركة.. وأعز الله به جنده. ونصر عبده. فإن الكلمة الطيبة.. المنبعثة من قلب عامر بالإيمان.. تواكب النفوس فى اللحظات الحاسمة.. حتى لا يتحول النصر إلى غرور.. وقبل أن تذهب الهزيمة بالنفوس، حسرات.

وعندما انتصر المسلمون فى بدر. جاءت الكلمة القرآنية المباركة راجعة بهذا النصر إلى واهبه سبحانه قبل أن تلعب نشوة الانتصار بالعقول:

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

ولما هزم المسلمون فى أحد. كان لابد من الكلمة القرآنية، الهادية. الممسكة بالقلوب حتى لا تطير شعاعا: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٢).

ولم تتوقف رحلاتى طلبا للعلم والاستيعاب.. من واقع التجارب الحية.. وأحسست بالأمل يتحول مع الأيام تجارب تقترب من النجاح، وأكدت التجربة أن الخطابة بالدرجة الأولى: استعداد.. ولكنه ينمو بالممارسة. والتلقى عن نماذج حية تملأ وعيك وتأخذ عنها مباشرة.

ومن وراء الاستعداد رصيد من الثقافة يغترف منه الخطيب.. وملاحقة للأحداث الجارية بما يناسبها من علاج. على ضوء ثقافة لا تقتصر فقط على الناحية الدينية.. بل إلى جانبها إلمام بما تقدمه المطابع.. وما تقدمه التجارب البشرية المستمرة.

إن الخطابة ليست علما يستوعب. وتحفظ قواعده.. لكنها ممارسة ومعاناة..

---

(١) سورة الأنفال: ٩: ١٠.

(٢) سورة آل عمران: ١٣٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى خيالى صورة فلاح القرية: إنه يحرث الأرض.. ويلقى البذر.. ثم يتعهده. ليقدمه إلينا من كل زوج بهيج. يفعل هذا.. ثم لا يستطيع فى نفس الوقت أن يعرّف لك الزراعة.. لا لغة.. ولا اصطلاحاً!

كما وأنه لا يعرف المصطلحات العلمية لمراحل النمو.. وأنواع الثمر.. ولا يعيبه أن يجهل ذلك.. ما دام يؤدى وظيفته.

وكذلك الشأن فى عالم الخطابة: فالذى يهم أولا: أن تمارس الحديث على أرض الواقع.. لتستوى من بعد على سوقك تعجب الناس

ثم لا بأس أن تحيط علما بقواعد الخطابة.. وأصولها.. وفروعها. ضبطا لخطاك. وتنمية لمواهبك.

وما هذه الصفحات التى أقدمها اليوم إلا قبس من هذه القواعد.. متأسيا بما سبق إليه أرباب هذا الفن.. لتكون علامات على طريق الراغبين فى توجيه الناس. مشفوعة ببعض التجارب العملية المعينة على ذلك.

لقد رمتنا المدنية الحديثة بأشتات من الرفاهية. وما ترتب عليها من مشكلات حملت الشباب أثقالا مع أثقاله..

فلم تترك لهم بالاً صالحا للاستماع.. أو تحمل مسؤولية التوجيه.. بيانا للحق.. ودفاعا عنه.

كل أولئك يشفع لنا حين نقدم هذه اللمحات. بعد أن عمت البلوى. وثقل اللسان. وغاض الاستعداد. فربما أثارت الحماس الراكد. لتتحرك الألسنة طبعا. أو تطبعا... ولا نريد بها أن نصوغ الخطيب كما يجب أن يكون..

بيد أنها محاولات على الطريق نرجو أن تكون خالصة لله تعالى.. ليكون الحديث بها أقل عابا. وأكثر صوابا.

والله أسأل أن يرزقنا جميعا نعمة التوفيق

د. محمود محمد محمد عمارة

جامعة الأزهر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الأول

ما هى الخطابة؟

قالوا فى تعريف الخطابة: إنها حدة التصور. وقوة التصوير [1].

فالخطيب يملك من شفافية الروح. وذكاء العقل. ما يعينه على تصور دقائق الحياة والأحياء. يرصد الكون بعين باصرة. وبصيرة كاشفة.

وإلى جانب ذلك. فله قدرة على تصوير ما وعاه. ونقله إلى غيره كما فهمه ورآه. فى تعبير قوى مؤثر.

لكن الخطيب فى ميزان الدعوة لا تنتهى مهمته عند تصوير الواقع كما رآه. ولابد له من خطوة أخرى على الطريق. لا تتم مهمته فى غيابها:

فمن واجبه أن يستميل الناس إلى ما يدعو إليه ـ استمالة تحملهم على الطاعة فى حال الأمر. والانتهاء عما ينهاهم عنه. ليستطيع بحق أن يؤدى دوره فى إحداث التغيير المطلوب على مستوى المجتمع الذى يعيش فيه.

أى أن مسؤوليته لا تنتهى بالإقناع العقلى بفائدة الطاعة. وضرر المعصية. فالناس مثله مقتنعون.

والأهم من ذلك.. جذبهم إليه ليستمعوا استماعا يتوج بالطاعة والامتثال. من أجل ذلك اختار بعض الباحثين[2] للخطابة تعريفا جامعا لهذه المسؤولية. بكل عناصرها: قال:

الخطابة:

فن مخاطبة الجماهير. بطريقة إلقائية. تشتمل على الإقناع والاستمالة.

وبتأمل هذا التعريف تبرز أمامنا طبيعة الخطابة.. ومسؤوليته الخطيب على

---

(١) فن الخطابة: ١٤.

(٢) راجع الخطابة للدكتور عبد الجليل شلبى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أوفى ما تكون..

فالخطابة فن: أى أنها وإن كانت استعداداً فطريا. لا يباع ولا يشترى، فهى مع ذلك فن من الفنون يمكن تعلمه بالممارسة.

يقول أرسطو: [بعض الناس يمارس الخطابة فطرة وسليقة، وبعضهم يمارسها بالمرانة التى اكتسبها من مقتضيات الحياة.ـ والوسيلتان ممكنتان:

فواضح أن تكون هناك طريقة. وأن يكون هناك مجال لتطبيقها. ولضرورة النظر فى السبب الذى يؤدى إلى نجاح هذا العمل المنساق بالعادة. أو المندفع بالفطرة أو السليقة.. لا يشك إنسان فى أن مثل هذه الدراسة من خاصة الفن][1].

المخاطبة:

وإذا كان كاتب المقال يسطر أفكاره على الورق.. ويغير من أفكاره ما شاء له التغيير. فإن الخطيب مسؤول أن يبلغ رسالته مباشرة. وأمام الجمهور مواجهة بكل ما تحمله المواجهة من أخطار.

قاعدة واسعة:

والخطيب لا يواجه فردا. أو اثنين.. أو ثلاثة.. ولكنه يلاقى جمهورا غفيرا.. ومع كثرته فهو متعدد المستويات. متنوع الثقافات. ويفرض ذلك: إرادة قوية وصوتا عاليا. وانفعالا بما يقول. ليقدره ذلك على السيطرة والإمساك بزمام موقف معقد متعدد الجبهات.. والمفاجآت.

طريقة الأداء:

ويتميز الخطيب بلون من الأداء:

فليس هو بالقاص الذى يسرد الوقائع سردا، ولا مؤرخا يحكى أحداث التاريخ بصوت رتيب.

---

(١) الخطابة: لأرسطو ١ ـ ٩ بترجمة إبراهيم سلامة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكنه يعبر عن معانيه بما يناسبها من الأداء الصوتى: علوا وانخفاضا. . رقة وقوة. . . وبذلك يشترك الأداء المعبر مع اللفظ فى إحداث التأثير لدى المستمعين.

النتيجة:

يستهدف الخطيب من وراء ذلك كله:

(أ) نقل أفكاره إلى الآخرين.

(ب) ثم إقناعهم منطقيا بهذه الأفكار.

(جـ) وأخيرا. . جذب قلوبهم إليها. ليعملوا بمقتضاها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفرق بين الإقناع.. والاستمالة

قد تقنع الشباب بمضار التدخين مثلا. فتنجح فى مهمتك... بل إنك تحاول مع البعض فإذا هو أشد اقتناعا منك بضرره البالغ على الصحة والوضع الاقتصادى.

وقد يكونون. أشد منك اقتناعا من حيث إنهم يصطلون بناره دونك.. ولا يعرف الشوق إلا من يكابده!

ومع ذلك.. فهم يمارسون التدخين بشراهة وتحد؟

إلى هنا.. فلم يكف الإقناع... ولابد من الاستمالة جذبا لهم. وكسبا لإذعانهم المنتهى بإقلاعهم عن عادة مَهَّد العقل والقلب معا للتخلص منها.

ولو أنك وضعت السّراق.. والقتلة.. والزناة فى قفص الاتهام وحاكمتهم جميعا على ما كسبت أيديهم.. لما كان جوابهم إلا أننا نعرف مدى الضرر.. وعمق الإجرام.. لكن الشيطان.. شاطر؟!

فالإقناع ممكن. والسبيل ممهد إليه... أما الاستمالة المتوجة بالاستجابة.. فهى بُعْدٌ آخر على الطريق تتم به وظيفة الخطيب. بالترغيب تارة. والترهيب تارة أخرى.. وبهما معا أحيانا..

مثال تطبيقى من السنة المطهرة:

أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ: عن أنس رضى الله عنه قال أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال:

« يا أيها الناس إن الله قد اختار لكم الإسلام دينا فأحسنوا صحبة الإسلام بالسّخاء وحسن الخلق ألا إن السخاء شجرة من الجنة وأغصانها فى الدنيا فمن كان منكم سخيا لا يزال متعلقا بغصن منها حتى يورده الله الجنة. ألا إن اللؤم شجرة فى النار وأغصانها فى الدنيا فمن كان منكم لئيما لا يزال متعلقا بغصن من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أغصانها حتى يورده الله النار» قال مرتين : «السخاء فى الله السخاء فى الله»[1].

كيف بلغ الرسول بقوله مكان الإقناع:

أولا: بمخاطبة العقل القاضى بأن الله تعالى إذا كان قد أكرمنا بهذا الدين الذى هو أجل النعم.. فلابد أن يجىء الشكر اعترافًا بهذه النعمة.. على أن يأخذ الشكر طابعه العملى على طريقين:

أ ـ طريق البذل بالمال إعانة للمحتاج. وصيانة لمرافق المجتمع.

ب ـ طريق الود الجامع للقلوب. وذلك بحسن الخلق.

وحيث يبدو التكليف هنا صعباً.. فإن العقل لا ينهض به وحده.. ولذا يتجه ﷺ إلى الترغيب والترهيب.. ليتحرك المخاطب ويأخذ خطوة عملية إلى شكر هذه النعمة.

وظهر ذلك فى استخدامه ﷺ لنسق الترغيب هنا وما تلاه من الترهيب.. والذى ينسجم مع طبيعة الإنسان التى لا تستجيب إلا للرفق.. والتدرج.. وها هو ذا عليه الصلاة والسلام يثير فيها الشوق إلى السخاء.. على سنة التدرج استنفاراً للقوى الكامنة.

فالسخاء.. شجرة.. ثم هو شجرة فى الجنة.. وليست من أشجار الدنيا..

فإذا تفتحت النفس.. وأصغت الأذن.. جاءها الأمل فى الوصول: ومع أن الشجرة فى الجنة.. فأغصانها مدلاة فى الدنيا.. ثم هى فى يدك ما دمت سخياً.. وبالمحتاجين حفيًا!

ومع ذلك كله.. فهى واصلة بك حتما إلى ما تشتهى.. إلى الجنة!! وبهذا الأسلوب الفريد. يمكن للمتكلم أن يحرك العقل.. والمشاعر جميعاً لينهض المستمع إلى التطبيق.. بكيانه كله.

وقل مثل ذلك فى كل ما يتناوله الخطيب من قضايا.

---

(١) رواه ابن عساكر، وكنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للشيخ العلامة على المتقى علاء الدين الهندى: ٦/ ٣٢٢ ط. دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد. قلت: وهو حديث ضعيف.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن محبة الله تعالى لا تأتى من مجرد الإيمان العقلى به.

فالأمور العقلانية وحدها. ما كانت يوماً لتؤثر فى العواطف والقلوب. ولو كان كذلك. لكان المستشرقون فى مقدمة المؤمنين بالله ورسوله. ولكانت أفئدتهم من أشد الأفئدة حباً لله ورسوله.

أو سمعت بأحد من العلماء ضحى بروحه إيماناً منه بقاعدة رياضية. أو مسألة من مسائل الجبر؟!

ذلك لأن الدوافع الوجدانية فى القلب من خوف ومحبة ورجاء. تفعل ما لا يفعله الفهم العقلانى المجرد.

ولقد أجاد الشاطبى رحمه الله حينما فرق فى باب الدوافع بين عامة المسلمين الذين دخلوا فى ربقة التكاليف بدافع من عموم إسلامهم.. وخواصهم الذين دخلوا فى ربقة هذه التكاليف.. يسوقهم ما هو أشد من مجرد التعقل والفهم.. وهو الحب والرجاء يقول:

«فالضرب الأول حاله حال من يعمل بحكم عهد الإسلام وعقد الإيمان من غير زائد».

والثانى: حاله حال من يعمل بحكم غلبة الخوف والرجاء. أو المحبة:

فالخوف: سوط سائق... والرجاء: حادٍ قائد... والمحبة: تيار حامل... فالخائف يعمل مع وجود المشقة...

غير أن الخوف مما هو أشق يحمل على الصبر على ما هو أهون.. وإن كان شاقاً... والراجى يعمل مع وجود المشقة أيضاً..

والمحب يعمل ببذل المجهود شوقاً إلى المحبوب.. فيسهل عليه الصعب. ويقرب عليه البعيد.

وتفنى القوى. ولا يرى أنه أوفى بعهد المحبة. ولا قام بشكر النعمة[1].

---

(١) د. محمد رمضان البوطى ـ فقه السيرة ـ ص٦٥، ٦٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا تبدو مسؤولية الخطيب فى إثارة القوى الكامنة فى داخل الإنسان لتنطلق من عقالها. إلى جانب العقل الواعى. وصولا إلى ما يرجوه من تأثير.

وإذا كان المحاضر يستخدم البرهان بياناً للأرقام والأحجام. فإن هذا البرهان لا يحمل على اتخاذ الطاعة سبيلا.

ويتكفل بذلك إثارة الوجدان.. وتلك وظيفة الخطيب.

يقول ابن سينا: إن صناعة الخطابة عظيمة النفع جداً: وذلك... لأن الأحكام الصادقة فيما هو عدل وحسن. أفضل نفعاً. وأعظم على الناس من أضدادها فائدة:

لأن نوع الإنسان يعيش بالتشارك. والتشارك محوج إلى التعامل والتجاور... وهما محوجان إلى أحكام صادقة.

وهذه الأحكام الصادقة تحتاج إلى أن تكون مقررة فى النفوس. ممكنة فى العقائد. والبرهان قليل الجدوى فى حمل الجمهور على الحق. فالخطابة هى المعنية بذلك.

أهمية الخطابة:

تنبثق أهمية الخطابة من أمور:

١ ـ كونها حاجة نفسية.

٢ ـ ظاهرة من ظواهر المجتمع البشرى.

٣ ـ وحدتها الكلمة بسحرها وفاعليتها.

٤ ـ بيان من البيان الذى هو نعمة الله على الإنسان.

٥ ـ سلاح من أسلحة الدعوة.

الخطابة: حاجة نفسية.

يولد الإنسان فيستقبل الحياة بما فيها ومن فيها... وميلاد الإنسان بداية لمرحلة من مراحل الصراع مع نفسه.. ثم مع بيئته فى محاولة إثبات ذاته.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى دوامة هذه المعاناة.. يحاول التعبير عن دوافعه. وآلامه وآماله بمختلف الصور: بالفلسفة.. أو الشعر.. بالصورة أو بالحركة.. وبالخطابة التى هى أبرز أدوات التعبير جميعاً..

وإذا احتاج الإنسان إلى الطعام.. فإنه أيضاً فى حاجة إلى الكلام! لينشئ عن طريق التعبير علاقات اجتماعية مع الآخرين... تستمر بها الحياة.

إنها ـ أى الخطابة ـ تهدف أبداً إلى التأثير والإقناع. معبرة عن عقيدة الخطيب. ورأيه فى مشكلات الحياة... تشتد باشتداد الأزمات. التى ترتبط ارتباطاً جذرياً بمصير الجماعة. وتقرير مستقبلها:

فهى ربيبة السلاح تواكبه.. وتعوض عنه. وأحيانا كثيرة تشحذه وتحفزه وتقتحم ملامح الدمار[1].

وإذ يسرّد المؤرخ ـ مثلا ـ حقائق التاريخ بهدوء وصوت رتيب.. بعيداً عن الانفعال..

فإن وطأة الإحساس بالانحراف فى ميزان الخطيب تفجر الانفعال الذى يجعل من التعبير عنه أمراً ملحاً لا يحتمل السكوت أو المهادنة أو الهدوء أو التأجيل.. ومن ثم فحاجته إلى التعبير أشد وألزم!

ظاهرة اجتماعية:

الإنسان مدنى بطبعه: لا يعيش وحده. ولابد من جماعة ينتسب إليها.. ويتفيأ ظلالها. ويستثمر طاقاته بالتفاعل معها.

ومن سنن الله فى هذا الاجتماع البشرى: الاختلاف.

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[2].

---

(١) الياحوى ـ فن الخطابة ٨.

(٢) سورة هود ١١٨، ١١٩

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد يكون هذا الاختلاف:

١ـ حول فكرة أو رأى.

٢ ـ على مال أو متاع دنيوى.

٣ ـ من أجل منصب.

ومن مضاعفات ذلك: محاولة الإنسان إقناع غيره واستمالته... إقناعه عن طريق البرهان.. واستمالته بوسيلة الوجدان.. وتأخذ الخطابة هنا دورها القيادى. حين يأخذ الفرد موقعه فى المعارك الدائرة مهاجماً.. أو مدافعاً.. عن طريقها.

يقول الدكتورر أحمد الحوفى:

(منذ اجتمع الناس فى مكان واجد واستوطنوه. وتكلموا بلسان واحد.. عرفوا الخطابة... لأنه من الطبيعى أن يختلفوا فى رأى أو عقيدة.

ومن الطبيعى أن يتنافسوا على غنيمة أو متاع أو سلطة. فيحاول المتغلب أن يستميل من يخالفونه. وأن يقنعهم... فإذا ما أقنعهم واستمالهم. فهو خطيب. وقوله خطبة.

ثم إنه من الطبيعى أن تنشب أمور تستدعى تعاون المجتمع. وتضافر قواه على اجتلاب نفع عام مشترك. أو اتقاء ضرر. فيتصدر بعض النابهين من هذا المجتمع لقيادة الجماعة وزعامتها. وعدتهم فى ذلك خطابتهم)[1].

وقد ذهب ابن رشد إلى جعل الخطابة قاسماً مشتركاً وجارياً على كل لسان مهما كان مستواه الثقافى ضئيلا:

(كل واحد من الناس يوجد مستعملا لنحو من أنحاء البلاغة. ومنتهياً منها إلى مقدار.

وذلك حق: فالتاجر ينادى لسلعته بشىء من البيان بلغته.. يستعمل فيه كل وسائل الإغراء. وكل ذى رغبة فى أمر. يجتهد فى استعمال عبارات خاصة. يجتذب بها من يريد حمله إلى ما يبغى ويريد. ولو تسامحنا لسمينا ذلك النحو من

(١) فن الخطابة: ٤٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكلام خطابة[1].

إنها إذن مظهر من مظاهر الاجتماع.. ثم إنها مقياس تقدم الجماعة وآية رقيها.. تحيا بحياتها. وتموت بموتها.

الخطابة والحضارة:

ويذهب الشيخ الزنكلونى إلى اعتبار البيان آية دالة على تقدم الأمة وذلك فيما قرره بقوله[2]:

إن دقائق التخاطب موجودة فى كل لغة من لغات العالم.. إلا أنها لم تكثر فى لغة العجم كثرتها فى لغة العرب..ولم تبلغ حدها الكمالى فى الكتب السماوية كما بلغته فى القرآن.. لذلك كان إعجاز القرآن فى لفظه ومعناه لإثبات أنه من عند الله تعالى].

الطريق إلى إجادة البيان:

حركة الجسم وانبعاثه نحو هدف ما.. تابعة لحركة النفس قوة وضعفا... فهناك ـ حول الإنسان ـ مؤثرات خارجية مختلفة.. تسلط على قوى النفس الداخلية.

فإذا سلطت هذه العوامل الخارجية على النفس.. تحركت هذه. واندفعت بالجسم بقوتها ليحقق مطلوبها..فإذا كانت الأمة بسيطة فى أفكارها ومعقولاتها لا تحتاج فى طريق التخاطب إلى مؤثرات كثيرة..والأمة العربية غنية بهذه المعانى الباطنة والملكات النفسية التى أثمرت وآتت أكلها. وكان البيان على رأس العوامل التى تستنهض بها.

ولقد كانت الأمم الأخرى مقيدة مستعبدة ومن ثم جاء بيانها ضعيفاً محدوداً.. من حيث كانت موارده ضعيفة عفنة.

وكذلك الأمم الحرة التى اتجهت إلى الفنون والصناعات وتغلغلت فى عالم المادة لا يمكن أن تقوى فى بيانها. لأن المادة ليست مورداً عذباً من موارد

(١) الشيخ محمد أبو زهرة ـ الخطابة ٢١

(٢) الدعوة والدعاة بتصرف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البيان.. ولكن الحرية المطلقة هى الغذاء الوحيد لملكة البيان.

والعماد فى تكون ملكات النفس هو استقلال الفكر وقوة النفس ونفاذ البصيرة.. وعن هذه جميعاً يأخذ البيان العربى سمته المرموق للتأثير فى النفس البشرية.

إن الحرية رأس مال الحياة المعنوية.. ومنبع الغرائز الفطرية... وعلى الحرية قامت حياة العرب.. وبالحرية اعتزوا.. وبها كمل بيانهم.

وقد نطق الطفل العربى بالضاد.. بعضلات هيأتها الطبيعة.. وهى لا تزال متعاصية على فصحاء الأعجمين].

وقد كان العربى يغوص فيما حوله من الأشياء.. ثم يغوص مرة أخرى فى طبيعة الإنسان ليعرف مواطن القوة والضعف فيها.. حتى يبلغ من نفس السامع ما أراد..ثم يبدأ خطواته العملية هكذا... كالقائد العسكرى تماماً:

١ ـ يستخرج من المؤثرات ما يحرك العواطف.

٢ ـ يؤلف بينها. ويرتبها ترتيباً محكماً يأمن معه الانهزام إذا هجم على السامع.

٣ ـ وقد يقدم لهذا الهجوم أموراً تسترعى نظر السامع فتصرفه عن كل ما يشغله.

٤ ـ ثم يختار من القوالب والأساليب أروعها وأنسبها بالمقام:

أ ـ والتى يلذ لها السمع إذا كان المقام مقام استعطاف.

ب ـ أو يخضع لها إذا كان مقام عزة وإباء.

٥ ـ وقد يلمح من المخاطب تكبرا فيعدل عن الحقيقة إلى المجاز.. ويرتكب أشق عمليات التكييف.

٦ ـ وقد يضطر إلى تكثير الألوان والظلال.. وهو ما يسمى بالبديع.

ويمكننا بعد ذلك أن نقول: إن اللغة العربية ركيزة من ركائز الحضارة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإنسانية. . والعربى بسببها عامل أساسى فى تشييد هذه الحضارة.

وتتأكد هذه الحقيقة بمزيد من التأمل فى خصائص لغة القرآن الكريم:

إن اللغة العربية ليست مجرد أصوات أو حروف.

فالإعراب مثلا حركات. . ولكنها حركات تدل على معان:

قال رجل لعلى كرم الله وجهه: قتل الناس عثمان.

فقال له: بين الفاعل من المفعول رض [1] الله فاك.

ولما قالت ابنة أبى الأسود الدؤلى وهى تنظر وتعجب من منظر السماء: ما أحسنُ السماء! (بضم أحسن).

فقال أبوها: نجومها. .

فقالت: ما عن هذا أسأل. .وإنما أنا أعجب!

فقال لها: إذن. . فقولى: ما أحسنَ السماءَ (بفتح أحسَن) وافتحى فاك!

وهكذا وضع باب التعجب والاستفهام.

وحين تخاطب إنسانا فإنك تدخل فى اعتبارك وضعه النفسى وأنت تتجه إلى باطنه لتؤثر فيه:

فخالى الذهن من قيام زيد يكفى أن تقول له: زيد قائم. . ولا تستعمل أدوات التوكيد. . فإذا كان مترددا: هل قام. . أم لم يقم. . احتاج التردد إلى نسبة من التوكيد وكان خطابه المناسب أن تقول له: إن زيداً قائم. .

فإذا أخذ السامع وضع الإنكار. . فرض عليك أن تكافئ هذا الإنكار بنصيب أوفى من التوكيد فقلت: إن زيداً لقائم. .أو: والله إن زيدا لقائم. .

تأثير الفكر فى اللغة:

ومعنى ذلك أن للغة العربية صلة وثيقة بالنفس الإنسانية وعالمها الباطن المتراحب. .

---

(١) رضٌ: كسر ودق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد كان تفرد العربى بفكره وحريته وخصوبة مشاعره عاملا نهضت به اللغة وتبوأت مكانها العلى بين لغات العالم بهذا الرصيد العظيم.

يقول المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين[1].

[للفكر أثر فى اللغة عظيم. ولولا الفكر لفقدت اللغة خواصها. ولم يكن لوجودها أية فائدة.

فإن الفكر هو الذى يربط الألفاظ بمعانيها. فيعمد إليها وهى أصوات فارغة. فيردها كالأصداف تحمل من درر المعانى ما يبهر العقل... أو كالأغصان تحمل من الثمار ما تشتهيه النفس.

والفكر هو الذى يتوسل به الإنسان إلى توسيع نطاق اللغة وتنظيمها، فيدخل فيها عند الحاجة كلمات جديدة أو يبتدع فيها أساليب طريفة. ويضع لها قواعد تساعد الناس على تعلمها وتحفظهم من الخطأ عند النطق بها.

ومن شواهد تأثير الفكر على اللغة: أن اللغة لا يرتفع شأنها وتظهر فصاحة ألفاظها، وغزارة مادتها، وحسن بيانها، إلا أن تلد أرضها رجالا ذوى عقول نيرة. وقرائح جيدة].

وكذلك كان العربى... وهكذا كانت اللغة العربية

ومعنى ذلك أيضا.. أن اللغة العربية باقية لا تموت ما بقى فيها كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.. لقد طلعا على العرب فكانت النقلة الهائلة فى لا براعة الأسلوب. وغزارة المادة. وكثرة الأغراض على نحو صارت به عصية على الاندثار: ما بقى أهلها مستمسكين بها مدافعين عنها وإلا فإن لغة القوم إلى زوال إذا هم ضعفوا ولم يكونوا عند حسن الظن بهم فرسانها المغاوير:

ذكر ابن حزم فى كتاب الإحكام سنة من سنن الكون فى سقوط اللغة فقال:

«إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها. ودخول غيرهم عليهم فى مساكنهم. أو تنقلهم عن ديارهم. واختلاطهم بغيرهم.

---

(١) من محاضرة بجمعية الهداية الإسلامية (يونية ١٩٣٢).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإنما تعتبر لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها. ونشاط أهلها وفراغهم.

وأما من تلفت دولتهم. وغلب عليهم عدوهم. واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم.. فمضمون منهم موت الخاطر.

وربما كان ذلك سببا لذهاب لغتهم. ونسيان أنسابهم وأخبارهم وبور علومهم.

هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل والضرورة».

يقول المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين: اللغة العربية لا تموت:

[ليس من الهين أن توضع لغة تتلقاها كل الأمم بالقبول على معنى أن تهجر لغاتها وتقيم هذه اللغة مكانها، وإذا فرضنا أن شعوبا غير عربية رضيت أن تتخلى عن لغاتها، فإن الشعوب الذين ينطقون باللغة العربية أحرص الناس على حياة لغتهم، فمن المحال أن يتبدلوا بها لغة أخرى وإن تضافر على هذه اللغة أمم الأرض جميعا.

تأبى هذه الشعوب هجر اللغة العربية وتحويل ألسنتها إلى لغة أخرى، تأبى ذلك لأنها لغة القرآن الذى هو معجزة الرسالة ومطلع الهداية، ولأنها تملك من فصاحة الكلم، وحكمة الأساليب، وغزارة المادة ما يجعل خطيبها أو شاعرها أو كاتبها المجلى فى حلبة البيان، فلو زهدت هذه الشعوب الإسلامية فى اللغة العربية كانت قد فرطت فى جنب الله، وأضاعت من يدها لسانا بلغ فى الإبداع أقصى ما يمكن أن تبلغه لغات بنى الإنسان].

كتب[1] «جول فرن» قصة خيالية بناها على سياح يخترقون طبقات الكرة الأرضية حتى يصلوا أو يدنو من وسطها، ولما أرادوا العود إلى ظاهر الأرض بدا لهم أن يتركوا هنالك أثرا يدل على مبلغ رحلتهم فنقشوا على الصخر كتابة باللغة العربية، ولما سئل جول فرن عن وجه اختياره للغة العربية قال: إنها لغة المستقبل، ولا شك أنه يموت غيرها، وتبقى حية حتى يرفع القرآن نفسه.

أهمية الكلمة:

وإذا تأملنا مادة « ك ل م» وجدنا معناها أينما وجدت فى كل التصاريف:

(١) من مقال «عليكم باللغة العربية» للاستاذ محمود بك سالم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القوة والشدة:

الكلم: الجرح وهو من آثار الشدة.

الكلام: سبب للشر فى أغلب الأمور:

قال الأخطل:

حتى اتقونى وهم منى على حذر والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر

كمل: تمّ.. والشيء إذا تم.. قوى...لكَم: من اللكم..ملك: وهو مصدر قوة المالك.

ولو تأملنا مادة «ق و ل» لم نجد أنفسنا أمام ألفاظ.. وإنما هى بناء لفظى نفسى معا:

فمادة: قول تدل على الحركة. (حركة الشفة واللسان) ولهذا السبب لا تبدأ بساكن ـ كاللغات الأخرى ـ وتنتهى بساكن لأنه يؤدى للسكوت.. لماذا؟

لأن هناك حقيقة تقرر: أن كل قول يهيئ لفعل.. والفعل يقتضى الحركة.. فبدأ الفعل بالحركة!!

وقد أشار «ابن جنى» فى كتابه «خصائص اللغة» إلى الفرق الواضح بين مادة «الكلام» ومادة «القول» وما يتميز به الكلام من قوة وحركة ناشئة عن الأصل اللغوى للكلمة.

من خصائص اللغة العربية:

١ ـ اللغة العربية لغة مرنة.. تواكب التقدم.. فهى من السعة والشمول بحيث تسع الناس جميعا.. فهى لغة القرآن الكريم الخالد.. الكامل.. الشامل.. فلابد أن تكون على مستواه كمالا. وشمولا.

وإذا ظن السطحيون أنها عاجزة عن الوفاء بكل المعانى البشرية وبنوا على ذلك أنها عاجزة عن أن تكون وسيلة لتدريس الطب مثلا.. إذا ظنوا ذلك فقد قالوا بغير علم..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتبقى اللغة العربية بكمالها وشمولها اللغة العالمية.. بل اللغة التاريخية.. وهى على ما يقول الشاعر:

لا تقل دارها بشرقيِّ نجدٍ كل نجدٍ للعامرية دار!

٢ـ ثم هى لغة الوضوح فمن سماتها أنها واضحة الدلالة. فهى مبينة للقصد. رافعة للّبس.

إذ لو كان لبس لما كان وئام وتفاهم.. وإنما كان التنافر ثم الخصام.. فالصدام!

وضوح الدلالة أوّلا[1]:

ومن دلائل الوضوح فيها أن الاستمساك بالقاعدة النحوية أو الصرفية قد يكون على حساب وضوح المعنى المراد أحيانا. ولكن اللغة قد تفرط فى القاعدة. وتسقطها من حسابها.. ليظل المعنى واضحا قريبا:

مثال لسقوط القاعدة الصرفية:

تقول القاعدة: إذا تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفا. مثل: قال.. ولكن الفعل: حَوَلَ: وحَوَرَ.. باقيان بلا قلبنا.. لأنا لو قلبنا.. لحصل لبس.. فلتسقط القاعدة.. وليبق المعنى واضحا.

مثال لسقوط القاعدة النحوية:

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة المائدة: الآية: ٦٩: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فالآية تفتح أبواب التوبة على مصاريعها.. فالله تعالى يقبل التوبة عن عباده.. حتى عن أخطر المنحرفين.. وهم الصابئون.. فإذا علم المذنبون أن أخطرهم وهم الصابئون يمكنهم بالتوبة أن يعودوا إلى ربهم.. قوى أمل المذنبين

---

(١) رجعنا فى هذا إلى آراء المتخصصين من علماء اللغة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى النجاة..

وكان المتوقع أن تنصب كلمة «الصابئون» عطفا على المنصوب قبلها..ولكنه تعالى رفعها لفتا للذهن بقوة.. حتى ينتبه عند هذا المنعطف ويعرف هذا المعنى الذى لن يلتفت إليه إلا بمخالفته لما قبله فى الإعراب.. مع ملاحظة ما يلى:

أن الآية الكريمة لم تقل «إن المؤمنين.. وإنما قالت: ﴿**إن الذين آمنوا.. والذين هادوا**﴾ ويعنى ذلك ـ والله أعلم ـ أن النصب فيما اختارته الآية الكريمة مضمر.. غير ظاهر..

من أجل ذلك يتحمل الحس العربى الانتقال منه إلى رفع «الصابئون» بلا صدمة للذوق العربى..

أما لو قال تعالى إن المؤمنين.. لصدم الحس العربى بالانتقال من النصب الصريح إلى الرفع الصريح بين المتعاطفين!!

ولهذا الوضوح صلة بهدف القرآن ـ كما قال العلماء ـ وهو: أنه رحمة.. ولأنه رحمة.. فإنه لا يُبهم.. حتى لا يشقى المستمع بهذا الإبهام.

٣ ـ دقيقة التعبير دقة تظهر بوضوح فى الآيات القرآنية.. التى يقع اللفظ فيها موقعه.. ولا يغنى عنه لفظ سواه.

أمثلة:

أ ـ يقول سبحانه وتعالى فى سورة الإنسان: الآية:٣: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾

يقول القاضى عبد الجبار: «بتصرف»:

إن كلمة «شاكرا» وكلمة «كفورا» وضعت كل منهما فى موضعها: فلم يقل سبحانه «شكورا» بصيغة المبالغة: لأن نعم الله على الإنسان كثيرة.. لا تعد ولا تحصى.. وإذن.. فمهما شكر النعم.. فشكره قليل.. ولذلك لم تجئ بصيغة المبالغة ولكن «كفورا» جاءت دونها بصيغة المبالغة.. لأنه إذا كانت النعم كثيرة فإن الكفر بها يكون عظيما.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ب ـ فيما حكاه القرآن الكريم عن فرعون قوله: ﴿ألم نربك فينا وليدا﴾.

لم يجرؤ فرعون على أن يقول «صغيرا» وآثر «وليدا» لأن الصغير معناه: أنه تعهده صغيرا.. حتى كبر..

وهذا غير صحيح... وإنما الصحيح أنه تعهده فقط لحظة الميلاد. وكان وجود موسى في قصره مجرد «لبث» وكان الله تعالى هو المربى الحقيقى.

هذه أهم مميزات اللغة العربية.. والتى بلغت أسمى مرتبة بالقرآن الكريم الذى شرفت به.

من عيوب اللغات الأخرى:

بالمميزات الآنفة صارت اللغة العربية لغة التواصل بين الأجيال.. يفهم اللاحق ما خطه السابق.. ويتفاهم بها الجيل تفاهما يلف الجميع فى وحدة جامعة مانعة..

أما اللغات الأخرى فلم تحظ بهذا الشرف لعيوب فيها لخصها أحد الباحثين فيما يلى:

أ ـ فيها حروف تكتب ولا تقرأ.

ب ـ وحروف تقرأ وهى غير مكتوبة.

جـ ـ لغة سماعية لا يطرد فيها قياس. ولا تعرف لها قاعدة.

د ـ ومخارج حروفها عجيبة.

هـ ـ ليس لها نسب ثابت. ولا أصل معروف بل هى لمامة من الطرق.

و ـ لا يستطيع واحد من القرن العاشر أن يقرأ لغته فى القرن التاسع ومع ذلك فرضها أهلها على الدنيا.

ومع هذه العيوب الصارخة. فقد كانوا يتواصون بالاهتمام بها:

وعندما احتل الألمان فرنسا فى حرب السبعين. قال الأستاذ لتلاميذه:

«اعلموا يا أولادى: أنكم أضعتم بلادكم. وسلمتموها إلى عدوكم بإهمالكم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لغتكم.

أما بعد: فإن هذه الخصائص التى اختص الله تعالى بها لغة القرآن الكريم.. تفرض علينا شكرها بالحفاظ عليها.. على الأقل.. كما يفعل الأجانب الذين غالوا بلغاتهم..

[ذكرت وكالات الأنباء: أن البرلمان الفرنسى صدق على مشروع قانون لحماية اللغة الفرنسية.

ويجرى الآن إعداد قاموس خاص. لاستبدال الكلمات الإنجليزية التى شاع استعمالها. بين أبناء الشعب الفرنسى..].

وما أحرانا أن نحرص على الاعتزاز بلغتنا.. فنرفض الدخيل.. ما دام فى لغتنا البديل.

حتمية العناية بالعربية:

بالإضافة إلى أنها لغة التنزيل.. فإن اللغة وعاء الفكر.. وكما يقولون:

[لا وجود للأفكار خارج نطاق الألفاظ].

وإذا تجنبنا النظرة التاريخية إلى اللغة العربية واكتفينا بالنظر إلى الواقع الراهن وجدنا اعتبارات متعددة تدعو إلى العناية بها.

وأود أن أبدأ بالاعتبار الدينى. فالعربية لغة القرآن والحديث والفكر الدينى الإسلامى، وهى مصادر الشريعة الإسلامية. فلابد إذن أن نعرف العربية، بل أن نتقن مسالكها الأدبية فى التعبير، لنحسن فهم مصدر تشريعنا، ونحسن التعرف على نصوصه ودلالته وروحه فنحسن الأخذ منه.

ويفرض الإسلام الصلاة ـ وهى من أهم أركانه الخمسة ـ بالعربية. فلا يبيح معظم الفقهاء قراءة الفاتحة فى الصلاة، مترجمة إلى لغة أخرى، بل يوجبون قراءتها حتى لو أداها المصلى الأجنبى دون أن يفهم معانيها. ولا شك أن كل حريص على دينه من المسلمين ـ وخاصة العرب ـ جدير بالسعى وراء الإحاطة بالعربية ليعمق معرفته بدينه. وقد أعلن علماء الدين أن الجهل بالعربية واحد من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أسباب الإلحاد.

ويفرض الاعتبار القومى العناية بالعربية. فهى اللغة المشتركة بين الأقطار العربية كلها، مما دعا الأقطار التى فرض عليها الاحتلال لغة أخرى زاحمت العربية وأبعدتها عن ألسنة أبنائها مثل الجزائر، دعا تلك الدول أن تبذل كل جهد من أجل التعريب، ودعا الأقطار التى أفسد بعدها عن بقية الأقطار العربية واختلاطهما الشديد بأجناس غير عربية مثل الصومال إلي أن تعنى بالعربية عناية زائدة، والعربية هى اللغة المشتركة بين الشعوب العربية على اختلاف دياناتها، مما دفع مسيحى لبنان إلى أن يكونوا أول المعتنين بهذه اللغة، وأول المؤلفين لمعاجم حديثه - وأكثرهم متابعة للتطور، فى العصور الحديثة. ولا تصلح أية لغة عامية - حتى العامية المصرية على شيوعها - لتكون الرباط الوثيق بين هذه الأقطار، فتحل محل العربية الفصحى

الوحدة واللغة المشتركة:

وكلما اشتدت الحاجة إلى توحيد الأقطار العربية فى دولة واحدة أو التنسيق بينها تحت مظلة الجامعة العربية أو خارج مظلتها، تبينت الحاجة إلى تلك اللغة المشتركة منذ زمن بعيد. والوحدة أو التنسيق الشامل أو الجزئى واحد من أهم الأهداف التى تسعى إليها الدول فى القرن العشرين، بعد أن بلغ التقدم درجة تجعل جهد الدولة الواحدة عبثاً لا يحقق شيئاً، ويوجب التنسيق والتضافر.

أضيف إلى الاعتبار القومى الاعتبار الفكرى. فالعربية الفصحى من أغنى اللغات بالمفردات، ومن أقدرها على الوضع والاشتقاق، وعلى الاقتراض من اللغات الأخرى: ما تهذبه فتعطيه مسحة عربية، وما تتركه على صورته الأجنبية. واستطاعت العربية - التى كانت لغة بدوية - أن تتمدن، فتحمل ما أرادت من الحضارات الإغريقية والفارسية والهندية وغيرها فى عصورها القديمة. واستطاعت فى العصور الحديثة أن تتحمل كثيراً من العلوم الراقية مع سرعة تطورها](١).

---

(١) د. حسين نصار.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معنى بلاغة الكلام:

يكون الكلام بليغا.. أى بالغا هناك عمق الإنسان إذا توفرت له عناصر الكلام البليغ وهى:

١ـ أن تكون ألفاظه فصيحة.

٢ ـ ونظمه محكما.

٣ ـ وأن تكون دلالته على المعنى منتظمة وافية.

وذلك إجمال يحتاج إلى شىء من التفصيل:

١ ـ معنى فصاحة الكلمة:

أ ـ أن تكون سهلة على اللسان.

ب ـ خفيفة الوقع على الآذان.

جـ ـ يألفها الذوق.. فلا تكون نابية جافية.

د ـ أن تكون جارية على قياس لغة العرب.

٢ ـ النظم المحكم:

أن تقع كل كلمة فى موقعها اللائق: فكل كلمة تعانق الأخرى.. فلا تستطيع أن تقول: لو تقدمت هذه الكلمة.. أو لو تأخرت..

حتى الجملة المعترضة.. [ولا محل لها من الإعراب] فإن لها محلا من المعنى.. لأنها تشكل مع سابقتها ولا حقتها بناء متكاملا.

٣ ـ انتظام الدلالة:

ويعنى انتظام الدلالة.. أن اللفظ حين يطرق سمعك.. فإن معناه يخطر فى قلبك.. وفى نفس اللحظة..إنه كالطعام الهنىء المرىء.. يأخذ سبيله فى كيانك بلا معوقات.. ثم يستقر فى العروق دما..

وأسرع منه ذلك المعنى المشتق من اللفظ الفصيح والذى يبرق فى قلبك ضياء.. فإذا هو ممتد فى قلبك..فإذا أنت منفعل به.. عامل بمقتضاه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما وفاء العبارة فيعنى: أنها كالمرآة.. تريك المعانى.. المعانى الأصلية. والفرعية الزائدة عليها.. تريك إياها.. واضحة جلية.. فلا يفوتك شيء منها..

إنها العبارة الجلية الوفية.. التى لا تغدر.. ولا تخون!!

وإذا بك من الجملة العربية كأنك أمام فصٍّ من الماس: له أضلاع.. وكل ضلع يعطيك شعاعا.. لكنها فى جملتها ـ كما قيل ـ رائعة هندسية!!

[ولئن كان من سمات البلاغة الرفيعة عند العرب الإيجاز الذى يتحدثون عنه بأنه [خير الكلام ما قل ودل].. ولئن كان أسمى ما يوصف به شخص من بلاغة: أنه يستطيع أن يعبر عن المعانى الكثيرة بألفاظ قليلة.. وألا يكون فى كلامه حشو لا تقتضيه ضرورة المعنى حتى يكون الكلام كما يصفه الجاحظ مزكيا إياه [وقال بعضهم: لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه. ولفظه معناه.. فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك].

ولذلك كان النقاد ينفرون من الكلام الذى يزيد على مقتضيات المعنى ويعبرون عن ذلك بأنهم كانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله[1].

بلاغة القرآن

ولقد تسنم كتاب الله تعالى ذروة البلاغة.. وبلا منازع..

والفرق هائل هائل بين بلاغة القرآن.. وبلاغة الإنسان فيما قرره علماء هذا الفن... فالبليغ من البشر مهما رسخت قدمه لكنه:

أولا: لو أطال الكلام.. لضعف آخره عن أوله.

ثانيا: والإنسان قد يحسن فنا. ثم يضعف فى آخر. ولكن القرآن الكريم هو الأقوى.. ودائما.. فى كل فن من فنون القول..

إلى جانب هذا الإعجاز الذى تفرد به القرآن الكريم حين يعيد القصة فى سورة.. ثم فى سور.. والمستوى واحد..

ولعلك شاعر بحلاوة السورة التى تقرؤها ملايين المرات.. وتبقى حلاوتها فى

---

(١) السخرية فى القرآن. دكتور عبد الحليم حنفى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذوقك.. بل تزيد وتزيد.

وتأمل من صور إعجازه وإيجازه كيف يمهد بأسلوبه للنقلة من السابق إلى اللاحق.. حتى يمضى المسلم فى صحبته فلا يحس بفجوة قد تربكه لحظة من زمان..

وخذ مثلا على ذلك سورة القصص كما أشار العلماء: فمع أن سورة القصص مكية.. إلا أن أسلوبها رقيق رفيق.. يشبه إلى حد كبير أسلوب السور المدنية.. ذلك بأن سورة القصص من أواخر ما نزل بمكة المكرمة.. فكأنما كانت رقتها تمهيدا للدخول بالمسلم إلى الحرم المدنى.

ثم لاحظ ما تحدثت عنه السورة من هجرة موسى عليه السلام من مصر إلى مدين.. وكيف كانت تمهيدا للهجرة من مكة إلى المدينة..

إنها البلاغة.. بلاغة القرآن.. وكفى بها إيجازاً وإعجازاً.

[إقرار البشر]

ولقد أقر العقلاء بعجزهم إزاء بلاغة القرآن.. ملتمسين العذر لأنفسهم صادقين فى هذا الاعتذار..

ومنهم أبو الفتح البستى الذى أنشد

إذا أحسست فى لفظى فتورا ... وحفظى والبلاغة والبيان

فلا تَرْتَبْ بفهمى.. إن رقصى ... على مقدار إيقاع الزمان

فى مجال التطبيق:

فى غزوة أحد. ومع تفوق المشركين على المسلمين عدة وعدداً.. إلا أن قريشاً لم تكتف بهذا التفوق.. بل أضافت إليه الكلمة الموحية: تواكب السيف.. وتؤازره:

وذلك حين أنشدت النساء بين يدى الحرب الفاصلة:

إن تقبلوا نعانق ... ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق ... فراق غير وامق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذا قال «نابليون» إن نسبة القوة المادية إلى القوة المعنوية كنسبة ١ : ٣ فإنا نقول:

أولا: إنه تأثر بتفوق القوة المعنوية إزاء القوى المادية.. فى غزوة بدر.. فكان هذا الحكم..

ونقول ثانياً: إن هذه الروح المعنوية ذاتها وليدة الكلمة المعبرة المؤثرة. والتى لابد منها عند النزال.

ولقد كان لكلمة «نابليون» أثرها السحرى فى قلوب جنوده عند غزو مصر:

«تقدموا أيها الجنود.. واعلموا أن أربعين قرناً من الزمان تنظر إليكم من فوق قمم هذه الأهرام»... وعلى مر التاريخ لم تفقد الكلمة فاعليتها:

إن الكلمات كما قيل ـ لا تروى التاريخ فحسب.. بل تصنعه أيضاً..

«إن القوة التى حركت أعظم الانهيارات التاريخية ذات الطبيعة السياسية والدينية. كانت منذ بدء التاريخ هى القوة السحرية. التى تنطوى عليها الكلمة المنطوقة وحدها»[1].

الكلمة.. العربية:

وتأخذ الكلمة العربية أهميتها بين مختلف اللغات.. بما تميزت به من خصائص: الدقة. والوضوح. والإيجاز. والنفاذ إلى أعماق الإنسان.

يقول العقاد: «اشتملت ـ اللغة العربية ـ على وسائل للتمييز بين الأوقات»:

فكل لحظة من لحظات الليل والنهار قد كان لها شأنها من حياة سكان البادية. بين السفر والإقامة. والحل والترحال... فمنها ما هو صالح لبدء السير. ومنها ما هو صالح للراحة القصيرة. ومنها ما هو صالح للراحة الطويلة. ومنها ما ليس يصلح لغير السكينة والاستقرار.

ولهذا وجدت كلمات: البكرة. والضحى. والغدوة. والظهيرة. والقائلة. والعصر، والأصيل. والمغرب. والعشاء. والهزيع الأول من الليل.

---

(١) من كلمات هتلر فى كتابه كفاحى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويكاد التقسيم على هذا النحو أن ينحصر بالساعات. على صعوبة التفرقة بين هذه الأوقات فى كثير من اللغات الأخرى بغير الجمل والتراكيب[1].

بل إن الدقة والوضوح من لوازم الكلمة العربية حين تستعمل فى معنى مجازى لم تخلق له:

(إن الكلمة الواحدة تظل محتفظة بدلالتها الشعرية المجازية. ودلالتها العلمية الواقعية. فى وقت واحد. بغير لبس بين التعبيرين).

وفى هذا يقول ابن خلدون:

(الكلمات الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الكلمات وأوضحها إبانة عن المقاصد.. لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعانى:

مثل الحركات التى تعين الفاعل عن المفعول. ومثل الحروف التى تفضى بالأفعال إلى الذوات من غير ألفاظ أخرى.

وليس يوجد ذلك إلا فى لغة العرب.

وأما غيرها من اللغات: فكل معنى أو حال. لابد له من ألفاظ تخصه بالدلالة.

ولذلك نجد كلام العجم من مخاطبتهم أطول مما نقدره من كلام العرب.

ومن هنا كان الغموض سمة من سمات اللغات الأخرى.. عدا العربية التى تظل محتفظة بحظها الكامل من الدقة والوضوح. وبالتالى بقدرتها الفائقة على التأثير.

يقول العقاد: «اللغة التى تلاحظ مقتضى الحال فى كل عبارة من العبارات الثلاث. ولا تستخدم عبارة واحدة لموضعين ملتبسين. بل تستخدم كل عبارة لموضعها الذى لا لبس فيه»[2].

وقد لاحظ الباحثون من جوانب التيسير والإيجاز والخصوبة ما يحتفظ بلغة

---

(١) اللغة الشاعرة: ٨.

(٢) أشتات مجتمعات: ٥٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القرآن الكريم على القمة أبداً، ومن ذلك[1].

١ـ يكفى فى الإسناد إنشاء علاقة ذهنية بين المسند والمسند إليه. بخلاف اللغات الأخرى المحتاجة إلى رابطة حسية هى (فعل الكينونة).

وكمثال: إذا قلنا: الأمة الإسلامية واحدة.. ثبت هذا المعنى فى نفوسنا ثبوتاً لا تحتاج معه إلى فعل الكينونة. ولا إلى شىء رمزى خارجى.

٢ـ إيجاز اللغة العربية فى مثل قوله تعالى:

(أ) ﴿كل من عليها فان﴾ ـ والمراد: الأرض.

(ب) ﴿حتى إذا بلغت التراقى﴾ـ والمراد: الروح.

(جـ) ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ ـ والمراد: الشمس.

وهى أمور يفهمها العربى بدون تنصيص.. ثقة بنفسه. وقدرته على فهم دقائق الأمور.

٣ـ تمتاز اللغة بالثراء والخصوبة. بصورة لم تتوفر لغيرها من لغات الأرض.

فمن معانى اللام. وهى حرف واحد:

(أ) التوكيد: إن زيداً لقائم.

(ب) الاستغاثة: بالناس. (بفتح اللام).

(جـ) التعجب: يا للناس. (بكسرها).

(د) الملك: الكتاب لمحمد.

(هـ) السبب: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾.

(و) الوقت: لثلاث خلون من رمضان.

(ز) التخصيص: ﴿الأمر يومئذ لله﴾.

(ح) الأمر: ليتصدق الغنى.

---

(١) من بحث فى مجلة الأزهر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(ط) الجزاء: ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبيناً. ليغفر..﴾.

(ى) العاقبة: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا حزنا﴾.

الله أعلم حيث يجعل رسالته:

وقد جعل الله سبحانه وتعالى رسالته حيث علم. حين اصطفى لرسالته النبى الأمى العربى.. واختار اللغة العربية تعبيراً عن وحيه الأعلى. تشريفاً لها. وتنبيها على قدرتها فى باب التعبير والتأثير معاً.

يقول سبحانه تنويها بالكلمة كسلاح ذى حدين:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ. يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤-٢٧].

إن الكلمة هنا مشبهة بشىء نام.. فيه حيوية: ﴿كشجرة﴾.. ثم إنها شجرة طيبة تجرى فيها عصارة الخير ﴿طيبة﴾ ولهذه الشجرة أصل ثابت ضارب الجذور فى أغوار الأض:

(أ) يمدها بمختلف العناصر والمعادن اللازمة للنمو والإثمار..

(ب) يجعلها عصية على الاقتلاع فى مهب الرياح: ﴿أصلها ثابت﴾.

وهى مع هذا كله: تستحم فى الهواء والضياء.. فهى سامقة فارعة.. لا يحجبها حاجب.. تأخذ حظها الأوفى.. من روافد النماء ليكون نتاجها مضاعفا ﴿وفرعها فى السماء﴾.

من أجل ذلك.. فهى تؤتى أكلها ﴿كل حين﴾.. فلا تثمر فى كل عام مرة أو مرتين.. بل هى دائمة العطاء.. موصولة البر..

وإذ يتهيأ لها من أسباب النماء هذا الحظ الوافر.. الذى جعل «كمية» الثمر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أيضا وافرة. . فإن نتاجها من ناحية «الكيف»فيه من البركة ما فيه. . لأنها موصولة بالزيت المبارك. . تثمر. . حين تثمر مرتبطة بالخالق سبحانه. . فلا تتحرك. . ولا تجود إلا بإذنه سبحانه!!

فإذا تصورت بعين خيالك قيمة الكلمة الطيبة بعد هذا. . تبينت لك خطورتها وأثرها فى حياة الفرد والمجتمع. . بقدر ما يتكشف لك زيف الكلمة المخادعة الباطلة. . التى ولدت ناقصة التكوين. . ولدت ميتة!. . لم تكد ترتسم صورتها فى الذهن مع الآية الكريمة ثم تتلفت فلا تجدها: ﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

مع الفخر الرازى:

وننقل هنا ما كتبه الرازى فى بيان فضل الكلمة الطيبة. . بتصويره المعبر لهذه الشجرة المباركة والتى ينتقل الذهن منها مباشرة إلى تقرير ما للكلمة من آثار حميدة: قال:[اعلم إنه تعالى ذكر شجرة موصوفة بصفات أربعة. ثم شبه الكلمة الطيبة بها.

فالصفة الأولى لتلك الشجرة: كونها طيبة. وذلك يحتمل أمورا:

أحدها: كونها طيبة المنظر والصورة والشكل.

وثانيها: كونها طيبة الرائحة.

وثالثها: كونها طيبة الثمرة. يعنى الفواكه المتولدة منها تكون لذيذة مستطابة.

ورابعها: كونها طيبة بحسب المنفعة. يعنى أنها كما يستلذ بأكلها. فكذلك يعظم الانتفاع بها.

ويجب حمل قوله: شجرة طيبة. على مجموع هذه الوجوه لأن اجتماعها يحصل كمال الطيب.

والصفة الثانية:قوله: ﴿أصلها ثابت﴾:

أى راسخ. باق. آمن من الانقلاع والانقطاع. والزوال والفناء.

وذلك لأن الشىء الطيب إذا كان فى معرض الانقراض والانقضاء. فهو وإن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان يحصل الفرح بسبب وجدانه. إلا أنه يعظم الحزن بسبب الخوف من زواله وانقضائه.

أما إذا علم من حاله أنه باق دائم. لا يزول ولا ينقضى. فإنه يعظم الفرح بوجدانه ويكمل السرور بسبب الفوز به.

والصفة الثالثة قوله: ﴿وفرعها فى السماء﴾.

وهذا الوصف يدل على كمال حال تلك الشجرة من وجهين:

الأول: إن ارتفاع الأغصان. وقوتها فى التصاعد. يدل على ثبات الأصل. ورسوخ العروق.

والثانى: إنها متى كانت متصاعدة مرتفعة. كانت بعيدة عن عفونات الأرض. وقاذورات الأبنية. فكانت ثمراتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب.

والصفة الرابعة: قوله: ﴿تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها﴾.

والمراد: أن الشجرة المذكوة كانت موصوفة بهذه الصفة وهى: أن ثمراتها لابد أن تكون حاضرة دائمة فى كل الأوقات، ولا تكون مثل الأشجار التى تكون ثمارها حاضرة فى بعض الأوقات دون بعض[1].

ويخلص بنا كلام الرازى إلى نتيجة هى: أهمية الكلمة.. وعلو شأنها. وأنها تملك عبقرية البناء. متى طاب مذاقها.

الكلمة والعمل:

وعلى ما للعمل من أهمية تجعل إيمان المسلم لا يتم إلا به. إلا أن الكلمة تسبقه فى الذكر تنبيها على شرفها:

يقول سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [سورة فاطر: ١٠].

وإذا كانت الصلاة عماد الدين.. وكانت الزكاة أساس القوة فى النظام

---

(١) الرازى تفسير سورة إبراهيم.

(٢) سورة فاطر: ١٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاجتماعى للأمة. فإن القول الحسن يتقدمها فى الذكر أيضا بقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾[سورة البقرة: ٨٣].

الشرط الأساسى:

ولا تكون هذه الفعالية لكل كلمة تقال:

بل لابد من توفر الشرط الأساسى لها لتكون بانية هادية: أن تكون طيبة.. وحسنة.. مباركة.

وهذا سر وجودها وخلودها:

ولن تخلد الكلمة على الأجيال. إلا إذا اتصلت بالحق والخير. وكان لها من قوانين الله فى خلقه سند. ومن إلهامه عباده وجود.

.. وقد يرمى الظالم بالكلمة فتحرق لكنها سرعان ما تخبو. أما الصادق المحق. فإن كلماته خالدة.

ينبغى أن يجعل كلماته للناس منهاجا. وفى ظلمات الحياة سراجا وهاجا[1]. وهذا شأن الكلمة الطيبة دائماً: ثابتة سامقة مثمرة. ثابتة لا تزعزها الأعاصير. ولا تعصف بها رياح الباطل. ولا تقوى عليها معاول الطغيان.

وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق فى بعض الأحيان ـ سامقة متعالية: تطل على الشر والطغيان من أعلى ـ وإن خيل للبعض أحيانا أن الشر يزحمها فى الفضاء .. مثمرة لا ينقطع ثمرها. لأن بذورها تنبت فى النفوس المتكاثرة آنا بعد آن.

وإن الكلمة الخبيثة ـ كلمة الباطل ـ كالشجرة الخبيثة: قد تهيج وتتعالى وتتشابك. ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الكلمة الطيبة وأقوى. ولكنها تظل نافشة هشة. وتظل بذورها فى التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض.

وما هى إلا فترة ثم تجتث من فوق الأرض. فلا قرار لها ولا بقاء. ليس ذلك مجرد مثل يضرب. ولا مجرد عزاء للطيبين وتشجيع. إنما هو الواقع فى الحياة.

---

(١) عبد الوهاب عزام: الشوارد: ٣٤٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولو أبطأ تحققه فى بعض الأحيان[1].

عبقرية الهدم!:

وكما تحمل الكلمة عبقرية البناء.. فإنها تحمل عبقرية الهدم إذا صح التعبير! ثم إنها مفتاح شخصية الرجل. الذى يتيح لك الدخول إلى أعماقه.

قال يحيى بن معاذ: القلوب كالقدور فى الصدور: تغلى بما فيها... ومغارفها ألسنتها... فانتظر الرجل حتى يتكلم. فإن لسانه يغترف من قلبه:

من بين حلو وحامض. وعذب وأجاج... ينبئك عن طعم قلبه: اغتراف لسانه[2].

ومن هنا قيل:

(أحسن شيء: كلام رقيق. يستخرج من بحر عميق. على لسان رجل رقيق)[3].

ولأن للكلمة هذا التأثير الخطير فقد أمرنا الإسلام بحسن اختيارها فرارا من خطرها:

عن هانئ بن بريد رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: **«عليك بحسن الكلام وبذل الطعام»** حديث صحيح[4].

ومع أن القرآن الكريم والسنة المطهرة تحدثتا عن السرقة باسمها الصريح إلا أن رجلا شهد بين يدى الرسول ﷺ: بأن هذا الرجل: سرق.. فقال له: **«أفلا قلت أخذ؟!»**.

فالنتيجة واحدة.. ولكن كره الرسول شيوع الكلمات التى تؤذى المشاعر. تطهيراً للجو العام.. ولتعين الإنسان على أمر الله.

روى مالك أنه بلغه عن يحيى بن سعيد أن عيسى عليه السلام مر بخنزير على

---

(١) فى ظلال القرآن.

(٢) العواتق: ١٠٩.

(٣) تاريخ بغداد: ١٤/ ٢٠٩.

(٤) جامع الأحاديث للجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير للإمام السيوطى جـ٤. ص٥٣٦ ط خطاب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطريق. فقال له:

انقذ بسلام!!

فقيل له: تقول هذا للخنزير؟ فقال: إنى أخاف أن أعود لسانى النطق بالسوء![1].

من أجل ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٤٨].

حتى لا تترك الكلمة المسموعة آثارها فى الاسماع.. ﴿إلا من ظلم﴾ فيجوز له أن يجهر بمظلمته. على أن هذا الاستثناء تارك أثره إذ يصبح عقابا يهدد الظالمين فلا يعودون.

وإذا علم المسلم أن من أسلحة الشيطان الماضية: كلمة السوء يحول بها لسان المسلم لتقطع ما أمر الله به أن يوصل إذا علم ذلك كان عند حسن الظن به ملتزما بالقول الحسن.. ليقطع الطريق على الشيطان بقول الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [سورة الإسراء: ٥٣].

وقد يصل الحذر إلى ذروته عندما يعلم حجم المصيبة الناشئة عن كلمة السوء التى قد تضيع مستقبله كله فى لحظة واحدة.

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا ليضحك بها القوم، وإنه ليقع بها أبعد من السماء» رواه أحمد[2].

يمـــوت الفتى مـــن عثرة بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرجل

---

(١) خلق المسلم: ٩٥.

(٢) حديث حسن: فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى. جـ٢. صـ٣٣٦ ط. الأولى: ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نعمة البيان

نعمة البيان من أجل النعم التى أسبغها الله على الإنسان. وكرمه بها على سائر الخلق بقول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الإِنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.

وعلى قدر جلال النعمة يعظم حقها. ويستوجب شكرها. ويستنكر كنودها. وقد بين الإسلام كيف يستفيد الناس من هذه النعمة المسداة. وكيف يجعلون كلامهم الذى يتردد سحابة النهار على ألسنتهم طريقا إلى الخير المنشود. . .فإن أكثر الناس لا ينقطع لهم كلام. ولا تهدأ لهم حركة.

وقد عنى الإسلام عناية كبيرة بموضوع الكلام وأسلوب أدائه لأن الكلام الصادر عن إنسان ما يشير إلى عقله وطبيعة خلقه. . .ولأن طرائق الحديث فى جماعة ما. تحكم على مستواها العام. ومدى تغلغل الفضيلة فى بيئتها[1].

وصناعة البيان ولدت مع الإنسان أول ما ولد ـ ولذا يجب العناية بها قبل غيرها ـ مما يحتاجه الإنسان:

(إن صناعة البيان هى ألصق صناعة ولدت مع الإنسان. وظهر أثرها من مبدأ تكوينه. وهى التى وضع قوانينها المعلم الأول أرسطو قبل الإسلام. وأحكم بنيانها. وأبدع تقسيم فنون الخطابة فيها. بعد أن قوى الإنسان فى الخصومات. واتسع نطاق العمران. وإن صناعة البيان وحدها هى التى أوقفت رحى الحرب الكبرى (الأولى) فى هذا الزمان وحركت من الشعوب الضعيفة يوم اعتلى «ولسون» على أعواد منبرها وهى السحر الذى يلعب به السياسيون إذا ضاقت بهم السبل)[2].

ما هو البيان:

فى تعريف البيان يقول الرازى فى تفسير سورة الرحمن:

---

(١) محمد الغزالى ـ خلق المسلم: ٩٠.

(٢) الدعوة والدعاة للشيخ الزنكلونى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(البيان: المنطق. فعلمه ما ينطق به. ويفهم غيره ما عنده).

ولا يكفى إظهار المقصود بأى لفظ كان.. فلابد أن يتم ذلك بأبلغ تعبير وذلك قول الزمخشرى فى تعريفه: إظهار المقصود بأبلغ لفظ.

ولا تكفى البلاغة وحدها فى تحقيق المراد. بل ينبغى أن يستهدف ذلك التأثير فى قلوب الآخرين تأثيرا ينتهى بالطاعة.

يقول الجاحظ فى تعريف الفصاحة:

(الإعراب عما فى النفس. وتوضيح ما يريده المتكلم. وحسن نقله إلى مستمعيه حتى يفهموا عنه كل ما يريد. ثم يتأثرون بما فهموه. ثم يطيعونه فيما أمر. وينتهون عما نهى)[1].

وهنا ندرك جلال نعمة البيان على الإنسان الذى يتمكن به من إحقاق الحق وإبطال الباطل.

ويزداد إحساسنا بالنعمة إذا ما تصورنا العى المانع أصحابه من هذه القدرة المعبرة المؤثرة.. وهو ما استعاذ منه موسى عليه السلام. داعيا ربه أن يجعل هارون أخاه ردءا له فى معركته مع الباطل بما كان يمتاز به من ملكة البيان.

فعندما عرَّض فرعون بعلته عليه السلام. (وكانت له رتة فى لسانه) فيما حكاه القرآن... ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

عندما حدث ذلك دعا موسى ربه أن يؤيده بهارون. وذلك فيما حكاه القرآن الكريم.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ [سورة الشعراء: ١٣].

وقوله تعالى ايضا: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [سورة القصص: ٣٤].

وقد أتم الله نعمته على رسوله موسى عليه السلام بشفائه من علته، ليستكمل عدة الكفاح فى مواجهته فرعون. قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا

(١) البيان والتبيين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مُوسَى﴾[سورة طه: ٣٦].

ولكن طول الألفة قد ينسى الإنسان جلائل النعم. ومنها البيان.

بيد أن نظرة فاحصة إلى: كيف يتكلم الإنسان.. وما هى الرحلة التى تقطعها الخاطرة فى آفاق النفس.. لتصير كلمة يلفظ بها اللسان.. مثل هذه النظرة تقف بنا على عظمة نعمة البيان على نحو يدفعنا إلى العناية بها:

إننا نرى الإنسان ينطق ويعبر ويبين. ويتفاهم. ويتجاوب مع الآخرين. فننسى بطول الألفة عظمة هذه الهبة. وضخامة هذه الخارقة. فيردنا القرآن إليها. ويوقظنا لتدبرها فى مواضع شتى. فما الإنسان؟ ما أصله وكيف بدأ؟ وكيف يعلم البيان؟ إنه هذه الخلية الواحدة التى تبدأ حياتها فى الرحم.

خلية ساذجة صغيرة. ضئيلة. مهينة. ترى بالمجهر. ولا تكاد تبين. وهى لا تبين!!

ولكن هذه الخلية ما تلبث أن تكون الجنين.. الجنين المكون من ملايين الخلايا المنوعة: عظمية. وغضروفية. وعضلية. وعصبية. وجلدية.

ومنها كذلك تتكون الجوارح والحواس. ووظائفها المدهشة:

السمع. والبصر.. الذوق.. الشم.. اللمس.. ثم.. ثم.. الخارقة الكبرى.

والسر الأعظم: الإدراك والبيان.. والشعور والإلهام. كله من تلك الخلية الواحدة الساذجة الصغيرة الضئيلة المهينة.. التى لا تكاد تبين والتى لا تبين!! كيف؟ ومن أين؟ من الرحمن.. وبصنع الرحمان.

فلننظر كيف يكون البيان بقول الله تعالى:

﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾.

إن تكوين جهاز النطق وحدة عجيبة لا ينقضى منها للعجب:

اللسان والشفتان. والفك والأسنان. والحنجرة. والقصبة الهوائية والشعب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والرئتان. . . إنها كلها تشترك فى عملية التصويت الآلية. وهى حلقة فى سلسلة البيان. . .وهى على ضخامتها لا تمثل إلا الجانب الميكانيكى الآلى فى هذه العملية المعقدة. . المتعلقة بعد ذلك بالسمع والمخ والأعصاب. . ثم بالعقل الذى لا نعرف عنه إلا اسمه ولا ندرى شيئا عن ماهيته وحقيقته. بل لا نكاد ندرى شيئا عن عمله وطريقته.

كيف ينطق الناطق باللفظ الواحد؟

إنها عملية معقدة كثيرة المراحل والخطورات والأجهزة مجهولة فى بعض المراحل خافية حتى الآن.

إنها تبدأ شعورا بالحاجة إلى النطق. بهذا اللفظ لأداء غرض معين. هذا الشعور ينتقل ـ لا نرى كيف ـ من الإدراك أو العقل أو الروح إلى أداة العمل الحسية. . إلخ.

ويقال إن المخ يصدر أمره عن طريق الأعصاب بالنطق بهذا اللفظ المطلوب واللفظ ذاته مما علمه الله للإنسان وعرفه معناه.

وهنا تطرد الرئة قدرا من الهواء المختزن فيها. . ليمر من الشعب إلى القصبة الهوائية. . إلى الحنجرة وحبالها الصوتية العجيبة التى لا تقاس إليها أوتار أية آلة صوتية صنعها الإنسان، ولا جميع الآلات الصوتية المختلفة الأنغام.

فيصوت الهواء فى الحنجرة صوتا تشكله حسبما يريد العقل. عاليا أو خافتا سريعا أو بطيئا. خشنا أو ناعما. ضخما أو رفيعا إلى آخر أشكال الصوت وصفاته.

ومع الحنجرة: اللسان، والشفتان والفك والأسنان. . . يمر بها هذا الصوت فيتشكل بضغوط خاصة فى مخارج الحروف المختلفة. . وفى اللسان خاصة.

يمر كل حرف بمنطقة منه ذات إيقاع معين. يتم فيه الضغط المعين ليصوت الحرف بجرس معين.

وذلك كله لفظ واحد. . ووراءه العبارة. والموضوع والفكرة. والمشاعر السابقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واللاحقة.

وكل منها عالم عجيب غريب. ينشأ فى هذا الكيان الإنسانى العجيب الغريب يصنعه الرحمن وفضل الرحمن[1].

سلاح من أسلحة الدعوة:

والخطابة فوق ذلك كله ـ سلاح من أسلحة الدعوة يحق الله به الحق ويبطل الباطل.

وعندما يكثر المبطلون فى الأرض، ويظهر شرهم فى البر والبحر.. فإن الخطيب واحد من الذين يتصدون لهذا الشر، كسرا لشوكته.. مع غيره من رفاق السلاح على طريق الحق..

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خُلُوفٌ يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»[2]. رواه مسلم.

ولو تأملت موقفه ﷺ فى قضية المرأة المخزومية التى سرقت وجاء أسامة بن زيد ليتشفع لها.. لتبين لك دور الخطبة الرئيسى فى التربية.

لقد أنكر ﷺ على أسامة شفاعته.

عن عائشة رضى الله عنها.. أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا من يكلم فيها رسول الله ﷺ فقالوا ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ: «**أتشفع فى حد من حدود**

---

(١) فى ظلال القرآن.

(١) صحيح مسلم. بشرح النووى. كتاب الإيمان ـ باب كون النهى عن المنكر من الإيمان جـ١. صـ٢٧ ط. حجازى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الله» ثم قام فاختطب فقال: «أيها الناس إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[1]. رواه مسلم.

فانظر كيف بقى للخطبة دورها فى التحذير والتنفير.. وكيف تهز النفوس.. فرار بها من وضع إلى وضع أمثل.

(١) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الحدود - باب حد السرقة. جـ١١ صـ١٨٦. ط حجازى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زاد الخطيب

تمهيد:

كما تنطلق الشحنة الكهربائية عبر الأسلاك.. فيضيء المصباح. وكما تتسلل خيوط الفجر فى غسق الليل.. فيشرق الصباح.. يمضى الخطيب إلى النفوس فيخرجها من الظلمات إلى النور.

وإذا كان العاملون فى كل موقع يسهمون بجهودهم فى إحداث التغيير النفسى والاجتماعى لدى الأفراد.. فإن الخطيب يأخذ حظه الوافى من هذا التغيير بما يملك من سلاح أمضى. وقدر أشمل:

إن المهندس.. والطيار.. أو البحار.. يتعاملون مع الجماد.. وإذن فما أيسر المهمة..

بيد أن الخطيب يتعامل مع كائن حى له مشاعره وله كذلك فكره.. بل إنه لا يواجه من البشر نوعا واحدا.. بل يواجه مستويات متعددة متفاوتة.

وهو ـ مع هذا ـ مطالب بأن يجمعها كلها على الصراط السوى وأن يحوز رضاهم جميعا.

وحتى رفيقيه على طريق التوجيه: المعلم. والأديب كلاهما لا يمارس نفس المعاناة.

فبينما المعلم يتجه أساسا إلى العقل. تزويدا له بالمعرفة... وبينما يخاطب كاتب المقال مستوى واحداً ـ إلى حد ما ـ فإن الخطيب يتفرد بمسؤولية امتلاك أقطار النفس كلها: اقناعها.. واستمالة تفضى إلى الالتزام... وفى الوقت ذاته تتسع قاعدته العريضة وتتسع.. لتستوعب حتى الأميين الذين لا يجيدون القراءة والكتابة.. فهو يتعامل معهم بينما لا يمثل بين يدى المعلم والأديب إلا المثقف القادر على الفهم والحوار.

ومع أن الخطيب كالمربى فلابد أن تتوفر فيه متطلبات عديدة وهى أكثر وأشد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مما هي فى المربى لأن هذا الأخير محدود التأثير فى عدد قليل - وإن كان ذا مسؤولية عظمى - بخلاف الإمام الخطيب فإنه غير محدود التأثير فى مثل ذلك العدد بل العدد أنمى وأكثر، ثم أنه غير منقطع الصلة. فإن التلميذ فى القسم يمر بأساتذة متعددين بخلاف الإمام الخطيب فإنه مستمر الاتصال بجمهوره الذى يؤم مسجده دائما وهذا الاتصال كائن من المهد إلى اللحد ولا مرية أن الاتصال بالغ التأثير فى العقول وشديد المفعول فى النفوس.

صلة الخطيب بالرأى العام:

الرأى العام رهين أن يكون أئمته فى الميزان الكفء، حتى لا يفقدوا صلتهم بالرأى العام، إن هناك فجوة تحصل بين الأئمة وبين جمهورهم حين ينقدح فى عقول المنصتين إليهم أنهم قطعوا الصلة بين خطبهم والحياة، والأنكى من ذلك أن يكون المستمعون غير مطمئنين لما يسمعون منهم لما يؤدى إليه ذلك من فتور ثم انقطاع الصلة بين الجمهور وإمامه.

فالحاضرون يجلسون تلك الحصة وهم يستمعون وقلوبهم لاهية وحتى أذانهم صاغية، وليست بصاغية لعدم إقبالهم الكلى على الاستماع الصحيح والإنصات والانصراف إلى تفهم ما يلقى عليهم.

وللحفاظ على هذا المعنى الذى ضيع فى بعض المساجد.

عن سعيد بن المسيب قال: إن أبا هريرة رضي الله عنه أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت»[1] رواه مسلم.

جاء الحديث فى الإنصات بأدق ما يكون حفاظا عليه حتى أن الأمر بالمعروف وقت الخطبة منهى عنه مع أنه ضروى وملتزم به. ولو أدى إلى لحوق الأذى بالآمر بالمعروف والناهى عن المنكر.

وما ذاك إلا ترغيب إيجابى للجمهور أن يكونوا عند الاستماع إلى الخطبة على

(١) صحيح مسلم مشكول. كتاب الجمعة. باب فى الإنصات يوم الجمعة فى الخطبة. جـ٣. صـ٤. ط محمد على صبيح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المستوى المطلوب فلا يلهيهم شاغل عن التنبه لكل دقيق وجليل يصدر عن الخطيب فهم فى إنصات محكم فى حضورهم الجمعة[1].

منشأ الأهمية:

وتنبع خطورة رسالته من خطورة دور المسجد فى المجتمع. ومدى قدرته على الإصلاح.

فالمسجد ركيزة الإصلاح.. وقطب الرحى فى عملية التوجيه:

(لقد كان المسجد ساحه للعبادة، ومدرسة للعلم. وندوة للأدب..وقد ارتبطت بفريضة الصلاة وصفوفها أخلاق وفضائل هى لباب الإسلام)[2].

أى إنه كان حلقة الاتصال التى يتم بها التعارف والتآلف وتحت سقفه مارست الدولة الإسلامية مختلف نشاطاتها فى مجالات: القضاء.. والإفتاء..

كما كان المسجد موئلا للإغاثة والخدمة الصحية والاجتماعية. ومنطلقا للجيوش ودارا للضيافة يستقبل الوفود القادمة.

وإذن.. فمهمة الخطيب المؤسسة على المسجد وقيمه تأخذ نفس الأهمية القصوى..

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كُرْبةً من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه. ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[3].. رواه مسلم.

---

(١) رسالة المسجد.

(٢) فقه السيرة: محمد الغزالى.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة ـ باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء جـ١٧. صـ٢١، ٢٢. ط. حجازى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حين نتأمل هذا الحديث ندرك أن استنزال السكينة والرحمة من السموات العلى.. وأن الفوز بصحبة الملائكة لا يتم بمجرد الاجتماع.

بل إنه الاجتماع المحكوم أولا بالنوايا المخلصة..ومحكوم ثانيا برائد المسجد الذى لا يكذب أهله.. والذى يتحمل مع المجتمعين مسؤولية هذه المدارسة التى تجعل لهذا الاجتماع قيمة عملية.

وذلك هو الإمام والخطيب.

ولعلنا ندرك أيضا سر هذه المهمة فيما حكى عن عبد الملك بن مروان. قال: شيبنى ارتقاء المنابر. وتوقع اللحن.

وقيل له يوما: قد عجل الشيب إليك. فقال: كيف لا يعجل وأنا أعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين[1].

[الخطبة.. والمقالة].

ومن هنا يظهر الفرق واضحا بين الخطبة والمقالة.. وبين الخطيب.. وكاتب المقالة..من حيث كان الخطيب أكبر مسؤولية.. والخطابة أشق تناولا والبصراء بأساليب البيان يقررون: إن العمل الفنى لابد أن يتخطى مراحل ثلاث قبل أن يكتمل هى: الإيجاد.. والتنسيق.. والتعبير.

يعنون بذلك: استنباط المعانى.. ثم ترتيبها والتنسيق بينها لتصير وحدة متكاملة..ثم يجىء التعبير عنها كمرحلة أخيرة..

وكاتب المقال.. والخطيب يشتركان فى المرحلة الأولى والثانية. ثم يختلف بهما الطريق فى لون التعبير.

فالخطيب يختار ألفاظه وتراكيبه. على نحو جميل أخاذ.. يساعد على تحويل المستمع من موقف إلى موقف.

وينتقل به من الإقناع إلى الاستمالة.. ثم يلف الجميع شعور واحد يحقق فى النهاية الأثر المطلوب.

---

(١) العقد الفريد: ٤/ ٢٣٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وربما وضح فرق ما بينهما إذا لاحظنا صعوبة مهمة الخطيب دون الكاتب:

فإذا كان الكاتب يملأ الذهن بالأفكار.. فإن الخطيب ـ فوق ذلك ـ يشعل هذه الأفكار.. ويفجر العواطف خلال النفس تفجيرا.. تتحول به الأفكار إلى قذائف للحق.. تحرق.. وتنير.. فى نفس الوقت..

ومن السهل على كاتب أن يجلس فى الظل.. بعيدا عن أعين الجمهور الراصدة.. وفى الوقت الذى تتوفر له إمكانات الكتابة: من مزاج معتدل.. ومراجع حاضرة.. ونجوة من النقد المباشر أو السخرية.. يواجه الخطيب قوما يرونه.. ويسمعونه.. بل ويسجلون حديثه..

وهم لن يجلسوا بين يديه منصتين حتى يكون قبل ذلك صورة حية لما يدعوهم إليه.. بقدر ما يتاح للكاتب من ضمانات الفرار من هذه المسؤولية.. لأنه يكتب.. ولا يراه الناس.. ولا يتابعونه..

ثم إن الخطيب يواجه أناسا لا يمهلونه حتى يرتب معانيه ويجهز أفكاره المندفعة.. وقد يورطه ذلك فى خطأ.. أو يحمله على إبداء رأى خطير.. لا يليق به.. وهذا هو الذى حدا بالعلماء أن موقفه.. عكس الكاتب الذى قد لا يغفرون له زلته لما توفد له من ضمانات الإجادة.. بحيث لا يتوقع منه الخطأ.. فإذا وقع فهو موضع المساءلة والعتاب.

وهذا قدامة بن جعفر (يتساهل مع الخطيب المرتجل. ويغفر له هنات لا يغفرها للكاتب... ويروى قوله عبد الله بن الأهتم:

[إنى لست أعجب من رجل تكلم بين قوم. فأخطأ فى كلامه أو قصر فى حجته؛ لأن ذا الحجا قد تناله الخجلة. ويدركه الحصر ويعزب عنه القول. ولكن العجب ممن أخذ دواة وقرطاسا، وخلا بفكره وعقله.. كيف يعزب عنه باب من أبواب الكلام يريده أو وجه من وجوه المطالب يؤمه)[1].

وفى الوقت الذى يرسل فيه الكاتبون بثمار عقولهم إلى المطابع ودور النشر.. وهم فى بيوتهم آمنون.. يعايش الخطيب الناس.. ويحيا مشكلاتهم.. إنه جزيرة

(١) فن الخطابة :١٢٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى بحر كبير.. يلجأ إليها المشرفون على الغرق.. يطلبون النجاة والعون.. على ما يقول الشاعر:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

فإليه يتجه الحائرون طلبا للأمان والقرار.. فى صحبة مباركة تترك آثارها فى القلب حتما..

وقد أفاض الكاتبون الغربيون بياناً للفرق بين الخطيب والكاتب.

فقال بعضهم مؤكداً أهمية الخطابة: ربما لا يكون مشاهير الكتاب خطباء... وقلما تجد بين الخطباء من لا يعد كاتباً.

إن المكتوب: ينال بالنظر. ويتذوق بالفكر... والمعقول: لا يصل إلى القلب إلا إذا مر على الأذن.

وللأذن إحساس يجب إرضاؤه. ونعومة يحذر من خدشها.

بالإضافة إلى أن الشعور الذى يثيره السمع ليس كالشعور الذى تولده القراءة. وأيضاً.. فالجمهور المحتشد له عقلية غير عقلية الفرد القارئ فى عزلة بين جدران البيت.

تساؤل:

ما الفرق بين الشيخ أحمد حسن الباقورى وبين الشيخ محمد متولى الشعراوى الباقورى؟رجل المثقفين.. أستاذ فى جامعة محدث فى التليفزيون هو يقول ويمضى. فى غرفة مغلقة. وحديثه إلينا هو حديث إلى نفسه فهو لا يرى أحدا. ولا يحس بوجود أحد ولذلك كانت «الفكرة» وترجمتها هى التى تسيطر عليه فهو صاحب فكرة يخاطب المفكرين.

والشيخ الشعراوى رجل الندوة وهو يحدث الناس ويحس بهم فيسألهم ويردون ويرى بعينه وأذنيه وقع كلماته عليهم.

والشيخ الشعراوى كالممثل على المسرح... والباقورى مثل الممثل فى السينما.

والشيخ الشعراوى صاحب لفظ رجل البلاغة ومؤمن بعبقرية اللغة العربية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقمة العبقرية هى القرآن الكريم.

ولذلك فأنت تسمع الشعراوى أفضل من أن تقرأه. . .وتقرأ الباقورى أفضل من أن تسمعه.

والشعراوى أقدر على إقناعك، لأنك على صلة به ولأنك تسأله. . ولأنه يسألك. . أى لأنك موجود فى عينيه وفى أذنيه وهو يعرفك فأنت طرف. والشعراوى صاحب حوار هو أحد طرفيه.

ولكن الباقورى لا يقنعك ولا يعرف كيف يفعل ذلك. لأنك غير موجود فهو يتخيلك ولا يحس بك. وهو لا يعرف إن كنت قد فهمت أو لم تفهم وإنما هو صاحب رأى اقتنع به ويعرضه عليك. . . إنها متعة مؤكدة![1]

آلة الخطابة:

فى قمة ثنائية. اجتمع قس بن ساعدة. وأكثم بن صيفى. .

قال أحدهما لصاحبه: كم وجدت فى ابن آدم من العيوب؟

قال: هى أكثر من أن تحصى.

وقد وجدت خصله إذا استعملها الإنسان سترت عيوبه.

قال: وما هى؟

قال: حفظ اللسان!؟

ولقد كان من نعمة الله تعالى على الإنسان: ذلك البيان. . حفظا لهذا اللسان:

إن الناس كالأشجار. .والجوارح: أغصان. .والكلام: ثمار. .

ومن تمام النعمة أن تكون الكلمة طيبة. . لا معطوبة. . ولا جارحة[2]!

---

(١) أنيس منصور.

(٢) يحس اللسان بالمرارة ولو كانت جزءا من ثلاثين ألف جزء ويحس بالحموضة. . والملوحة. . والحلاوة إذا زادت نسبتها أكثر فى نسبة أقل. .

ويعنى ذلك: أن المر والحامض لما كانا مؤذيين كان لابد من إحساس اللسان بهما. . ولو كانت النسبة ضئيلة. . أى لابد من الاستشعار عن بعد. بخلاف الملوحة والحلاوة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من أسرار اللسان:

من أسرار اللسان أنه خاضع لإرادتك: نطقا أو سكوتا. بخلاف بقية الحواس. . .ثم إنه لسان واحد: محكوم بأسنان وشفتين.

ولك أيضا: أذنان. . وعينان. . .ولا ترى العين إلا الألوان. .ولا تحس الأذن إلا بالمسموعات:

أما اللسان: فهو مطلق السراح!! يتذوق. . وينطق. . وفى نطقه: التعمير والتدمير!

ومن رحمته تعالى أن جعل مع اللسان الشفتين: لأن هناك ألفاظا لا تحتاج إلى لسان. مثل: «باب». . .وهناك ما يحتاج إلى اللسان مثل: «دار» فكان لابد منهما. . .ويظل اللسان دليلا على ما يدور فى أعماق الإنسان!.

سئل حكيم: فى كم تعرف الرجل؟

قال: فى يوم. . إن سكت. . .وفى ساعة. . إن نطق!!

فالإنسان. . يظل منطقة نائية. . مجهولة. . حتى ينطق. . فنعرفه. .

أشرف ما نطق به اللسان:

وأشرف ما نطق به اللسان: كلمة التوحيد. .

وقال العلماء فى تعليل ذلك:

١ ـ كلمة التوحيد: مبدوءة بالنفى. . غسلا للقلب من كل ما سواه تعالى. . وحتى يكون مستعدا للتلقى.

٢ ـ كلمة التوحيد مستغنية عن النقط. . ومن طبيعة الموحد الاستغناء عن الخلق اكتفاء بالخالق سبحانه وتعالى.

٣ ـ ثم إن حروفها جوفية. . فالمهم فيها هو: القلب. .

٤ ـ تنقل المرء من عالم: من شقوة الأبد. . إلى نعيم الأبد.

٥ ـ فى غيابها تصير أعمال المشركين ﴿كرماد اشتدت به الريح﴾ أما المسلم:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فحسنته بعشر أمثالها إلى ما يشاء تعالى من أضعاف.

سأل العباس رضى الله عنه رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: فيم الجمال؟ قال: «**في اللسان.. إن من البيان لسحرا**»[1].

وليس هناك أجمل.. ولا أسحر.. من كلمة التوحيد.. تلك الشجرة المباركة: ﴿**أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها**﴾.

*****

(١) رواه أحمد.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السيف.. والقلم

يقولون: إن عماد القوة فى الدنيا: اثنان: السيف. والقلم.

فأما السيف.. فإلى حين... وأما القلم.. فإلى كل حين.. والسيف مع الأيام مكروه. مغلوب... أما القلم: فهو: غالب.. ومحبوب!

وإذا كان الخطيب بلسانه يهز المشاعر.. فإن الكاتب بقلمه.. يقف معه فى خندق واحد.. بهذا القلم.. بل قالوا: إن الكاتب أوسع من الخطيب دائرة.. وأبقى منه أثرا.. من حيث يظل نتاجه حتى بعد وفاته دائم الأثر..

إن القلم فى يد الجاهل قطعة من الخشب. ولكنه فى يد العالم شىء آخر:

[بِشَباته يصاب من الأمر الكُلى. والمفاصل.

لعابه لعاب القاتلات.. وهو لعاب الجنى الطيب فى نفس الوقت.

فصيح إذا استنطقته، وهو راكب. [يعنى فى يد الكاتب] وأعجم إن خاطبته وهو راجل [ملقى على الأرض] إذا امتطى الخمس اللطاف ـ الأصابع ـ وأُفرِغَت عليه شعاب الفكر وهى جوافل.. أطاعته أطراف القنا. وتقوضت بنجواه تقويض الخيام الجحافل... خطبه جلل.. وهو ناحل.

قال ابن المعتز: القلم: يخدم الإرادة ولا يمل الاستزادة.. يسكت واقفا.. وينطق ساكتا. على أرض بياضها مظلم.. وسوادها مضىء.

وقيل: عقول الرجال تحت سِنِّ أقلامهم والأقلام: مطايا الفتن.

فما أعجب شأن القلم: [يشرب ظلمة. ويلفظ نورا. وقد يكون قلم الكاتب أمضى من سيف المحارب. فهو سهم ينفذ فى المقاتل. وشفرة تطيح بالمفاصل]

إشارة قرآنية:

كان أول ما نزل على الرسول ﷺ: اقرأ.. فالقراءة أولا.. أعنى: التعلّم.

ثم نزلت سورة القلم.. مشيرة إلى التعليم بالقلم.. بعد مرحلة التعلم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالقراءة.

لكنه تعالى أقسم بالقلم.. وأمر فقط بالقراءة: اقرأ..

إنها إذن مهمة الكاتب بالقلم.. ومدى ما يحققه فى دنيا الناس من آثار:

إن مهمة الكاتب ليست تسلية القارئ.

وإنما هى إيقاظه. وتجنيده. لكى يحارب من أجل تجاوز الحيوان الذى يقبع داخله.

ولذا قيل: لقد تبينت وأنا أمعن فى الكتابة أننى لا أكتب من أجل الجمال.. بل من أجل الخلاص.. خلاص الإنسان.

من بركات القلم:

يقولون: الخط: لسان اليد... والخط الجميل يزيد الحق وضوحا... وهكذا: تتضافر فصاحة اللسان. مع فصاحة اليد..

ومن فصاحة اليد ما قاله النويرى يصف الخط الجميل:

يستحق الخط الجميل أن يوصف بالجودة: إذا اعتدلت أقسامه. وطالت ألفه ولامه. وضاهى صعوده جذوره. وتفتحت عيونه. ولم تشتبه راؤه ونونه. وخيل إليك أنه يتحرك وهو ساكن!!

قال عبد الحميد الكاتب يوصى أهل صناعته بمحاسن الآداب:

[تنافسوا يا معاشر الكتاب فى صنوف الآداب، وتفهموا فى الدين، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل ثم العربية، فإنها نفاق[1] السنتكم ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم].

وصدق القائل:

من لم يقوِّم بالقديم لسانه فبيانه مهما يُجدْه صهيل!

---

(١) نفاق السنتكم: أى: رواج كلامكم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول الدكتور محمد طاهر درويش[1] :

تختلف الخطابة عن الكتابة. ولو قصدت إلى الإقناع والتأثير: لأنها تخلو مما لابد منه للخطيب من: جمهور يواجهه. وجمع يشافهه.

وبهذا تفترق أيضا عن الحديث والقصص ورواية الأخبار وما إليها؛ لأن الخطابة تقوم على عنصرين لا يتوافران فى هذه الأنواع هما: الإقناع والتأثير.

كما تفترق عن الشعرُ فى أنه لا يلجأ إلى التقرير... ولا يجعل اعتماده على المنطق والدليل إلا نادرا.. ويلتزم من القيود ما لا حاجة بها إليه.

وأيضا لارتفاع أسلوبه ودقة معانيه. وتحكم أوزانه وقوالبه فى مبانيه.

وبعد:

[فكثيرون هم أولئك الذين يهزون المنابر هزا. ويكادون بضجيج الكلمات أن يحرقوا آذان المستمعين. ومع هذا يضيع الصوت والصدى. ولا يبقى منهم شىء! وكثيرة هى أعداد الذين تحصى أسماؤهم فى السجلات. وعاظا ودعاة.

فإذا نظرت إلى المردود. هالتك النتيجة. وبدا لك أنهم لا ينقشون على الحجر. ولكنهم يحرثون فى الماء[2].

ولابد لكى ينهض الداعية بأعبائه من توفر أمور تعينه على أمر الله تعالى:

ويمكن الإشارة إليها فيما يلى.

الاستعداد

(الخطابة ـ كالشعر والتمثيل والرسم ـ من المواهب الفطرية)

فبعض الناس يخلق خطيبا أو شاعرا بفطرته.

وهذه الطبيعة توفر عليه جهدا كبيرا فى حصوله على كمال هذه الصفة. ومن الناس من يحسن الكتابة وتشقيق الكلام فيما يعبر عنه من المعانى. لكنه لا يحسن إلقاءه ولا مواجهة الناس.

---

(١) الخطابة.

(١) العقد الفريد ٤/ ٢٣٣ ـ رسالة المسجد ربيع الأول ١٤٠٢ هـ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومنهم من يحصر ويعيى، أو يرتج عليه إذا وقف للخطابة. وإذا تحدث فى مجلس أجاد الحديث.

ومنهم من لا يستطيع هذا ولا ذاك.

وهذا النوع يتجنب الخطابة أصلا... أما الآخرون فيحتاجون إلى تدريب وتكوين عام حتى يحسنوا الخطابة.

والشخص الموهوب أقوى وأقدر على كل حال... ولا يعنى هذا أن الخطيب الموهوب يستغنى عن مؤهلات الخطابة. ومعرفة قواعدها. وطرق إلقائها.

فهناك أمور خاصة: لا يكون الخطيب خطيبا بغيرها[1]].

وقد مر بك رأى أرسطو فى الخطابة وإمكان أن تكون فنا ينال بالممارسة والتعلم:

فمن الناس من هو مطبوع على الخطابة أصلا... ومنهم من يحاول التطبع بالمعاناة والمران.

وهذه حقيقة مقررة. لكن المهم هو: كيف ننمى هذا الاستعداد؟

كيف ننمى الاستعداد:

ينمو الاستعداد بأمور:

المحـــاولة:

فى مستهل حياتنا كنت أنا ورميلى[2] نجمع أعواد الحطب. وبقايا الأثاث القديم فى البيت أو الحقل.

ثم نتخيل ذلك أناسا يجلسون بين أيدينا.. وينصتون إلينا!

ويتقدم أحدنا. ليقوم فيها خطيبا. فإذا انتهى من خطبته. أخذ الثانى مكانه فى جد واهتمام.

لم نكن نعد موضوعا.. بل لم يكن هناك كلام يحسن السكوت عليه. وإنما

(١) د. عبد الجليل شلبى ـ الخطابة ٢٤٣.

(٢) د. محمد الأحمدى أبو النور.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هى محاولة نقول فيها كلاما نصبه فوق رءوس جمهور لا وجود له إلا فى خيالنا.

والمهم أن ننطلق.. وليس مهما أن يكون لكلامنا معنى!

ولم نشأ أن تبدأ المحاولة بين أهلينا فى المسجد مثلا.. فرارا من سخريات قد تطفئ شعلة الحماس فى قلبينا.

وآثرنا أن نتعلم الكلام بعيدا عنهم. حتى إذا تمرست النفوس بالتجربة واتتها قدرة على التعبير. تقوى مع الأيام.

ما معنى هذا؟ معناه باختصار: إن الاستعداد للخطابة مركوز فى نفوسنا..

وعلى تعدد الغايات فى حياة رفاقى. فلم تكن لى غاية إلا أن أكون خطيبا. وهذا الولع المبكر بها دليل هذا الاستعداد.

وكلما تخيلت صورتى فى المستقبل. تبرز صورة خطيب هو - أنا!! - يشير بيديه.. ويضرب المائدة بقوة فى بيان يستحوذ على قلوب المستمعين! وتلك غاية المراد من رب العباد.

فلا كانت صورة المهندس أو المدرس تستهوينى. ولا صورة الطبيب.. على شدة ولع الزملاء بها.

ولا يعنى هذا سهولة المحاولة...بل لابد من تصعيد التجربة العملية ليؤتى الاستعداد أكله.

يروى أن ديمستين خطيب اليونان.. كان ينقطع شهورا طويلة ونصف رأسه محلوق. لئلا يحاول الخروج...وكان يلقى خطبا وفى فمه حصى. وهو على شاطئ البحر. ليمرن نفسه على التغلب بصوته على جلبة الناس.

ولما رجع إلى المنبر كان قد أخضع صوته لإرادته[1].

مجالسة البلغاء:

بلاغة البلغاء تعدى الآخرين حين يجالسونهم. أو يقرأون لهم. وقد حكى المرحوم الشيخ أبو زهرة عن ابن الأثير رأيه فى ضرورة صحبة البلغاء - فى

(١) الخطابة لأبى زهرة. ٢٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مأثوراتهم - فى مجالات التعبير. . ليمكن للمتعلم أن يقبس من أنوارهم.

وربما انقدح فى ذهنه معنى غريب لم يسبق إليه الأقدمون. . .أى أن طالب التفوق فى مجال الخطابة لابد له من متابعة تجارب الآخرين وصولا إلى ذخيرة من المعانى والتراكيب.

ونرى أن مجرد قراءة هذا التراث لا تكفى. . لأن مجالسة الأحياء منهم تقدم للطالب أساليب اللغة منطوقة نطقا صحيحا. وذلك ما لا تتكفل به مجرد القراءة التى لا تتيح سماع اللفظ على وجهه السليم.

وقد تفيد فى تحصيل قدر من المعانى. وتبقى الحاجة ماسة إلى سلامة التعبير عن طريق السماع المباشر.

وقد كنت أوصى بعض الطلاب المتعثرين فى الحديث. . والذين لا تسعفهم قدراتهم على النطق الصحيح أن يكثروا من الاستماع إلى المحدثين الكبار عبر موجات الأثير.

يقول الجاحظ:

(وأنا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبيين. وإن ظننت أن لك فيهما طبيعة. . وأنهما يناسبانك بعض المناسبة. ويشاكلانك فى بعض المشاكلة.

ولا تهمل طبيعتك. فيستولى الإهمال على قوة قريحتك ويستبد بك سوء العادة).

ثم يحذر من مجالسة الجهال حتى لا يشوشوا على ملكة البيان لديه:

(ولو جالست الجهال والسخفاء والحمقى شهرا فقط. لم تنق من أوضار كلامهم. وخيال معانيهم بمجالسة أهل البيان والعقل).

أى أنك مهما جالست العلماء ولو دهرا. فإن ذلك لن يذهب الأثر السيئ الناشئ عن جلوسك مع الجهال ولو كان ذلك زمنا يسيرا. وذلك مردود إلى حقيقة من حقائق النفس الإنسانية يوضحها الجاحظ فى نفس المقام فى قوله:

(. . لأن الفساد أسرع إلى الناس. وأشد التحاما بالطبائع).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخطيب
والثقافة الأدبية واللغوية

يقول ابن قتيبة: «أول الخطابة اجتماع آلة البلاغة ـ وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش. ساكن الجوارح»[1].

وإلا.. فإن فقدانه ذلك العنصر الفعال مؤدٍّ به إلى الفشل. على ما يقول أبو هلال العسكرى:

(.... فإن الحيرة والدهش. يورثان الحبسة والحصر. وهما سبب الإرتاج[2]

ويهمنا أن نوضح ـ فى معرض الحديث عن تنمية الاستعداد ـ ما للثقافة الأدبية واللغوية الواسعة من أثر فعال فى حياة الخطيب تمكنه من تصريف القول وتجاوز لحظات الحيرة والدهش بما يملك من زاد يتيح له الكلام فى كل مناسبة. وعلى أى مستوى.

وقد روى ـ دليلا على أهمية الثقافة اللغوية وخطورتها أن أعرابيا قدم المدينة المنورة فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأل عمن يعلمه القرآن فأقرأه رجل سورة «براءة» وتلا عليه قوله تعالى: ﴿أن الله برىء من المشركين ورسوله﴾.

بكسر اللام فى «رسوله» فقال الأعرابى: أن يكون الله برىء من رسوله فأنا أبرأ منه!!

فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فدعا الأعرابى.. وعرف منه القصة.

فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابى.. إنما هى: ﴿أن الله برىء من المشركين ورسوله﴾ برفع اللام.

فقال الأعرابى: وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه.

---

(١) عيون الأخبار: ٢/١٧٣.

(٢) الصناعتين ١٤ ـ ١٥ والحبسة: بضم الحاء خلاف الانطلاق وتعنى التوقف والحصر: مثل حصر القارئ: منع من القراءة فهو. حصر أى ممنوع. أرتج: أى استغلق عليه ولم يقدر على الكلام.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأمر عمر رضى الله عنه ألا يقرئ الناس القرآن إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود فوضع علم النحو.

بل إن حساسية أدبائنا بلغت حداً ليس وراءه وراء فى الاهتمام باللغة حتى فى صورتها الإملائية:

وحكوا فى ذلك عن مدرس بدار العلوم استبقى طالباً أكثر من عام فى مستوى دراسى واحد.. حائلا بينه وبين النجاح لماذا؟

لأنه أخطأ إملائياً فكتب كلمة «لكن» هكذا: «لاكن»!؟[1].

وإذا كانت الثقافة الدينية لازمة للداعية فى الدرجة الأولى، فإن الثقافة الأدبية واللغوية لازمة له كذلك. ولكن الأولى تلزمه لزوم المقاصد والغايات.. والثانية تلزمه لزوم الوسائل والأدوات

[واللغة ـ بمفرداتها ونحوها وصرفها ـ لازمة لسلامة اللسان، وصحة الأداء، فضلا عن حسن أثرها فى السمع. بل صحة الفهم أيضاً، فالأخطاء اللغوية إن لم تحرف المعنى وتشوه المراد يمجها الطبع وينفر منها السمع.

وانظر كم يقشعر جلدك، ويضطرب قلبك، ويتأذى سمعك، حين تسمع داعية يقول: التُّبعة وهو يريد: التبعة. ويذكر الأهُبَّة وهو يريد الأُهبة.

وآخر ينصب المرفوع، ويرفع المنصوب، ولا يفرق بين فاعل ومفعول به، ولا يبالى بإضافة ولا حرف جر.. فلا يكاد ينهى سطراً من الكلام إلا ضلك فيه ضلة، أو لطمك ـ ولطم الخليل وسيبوه معك ـ لطمة أى لطمة.

وكثيراً ما يؤدى اللحن إلى إفساد المعنى، وإخراجه إلى ما يناقض الشرع والعقل... وشر ما يكون ذلك إذا كان اللحن فى كتاب الله، كذلك الإمام الذى

---

(١) دفع الممثل الأمريكى بوب هوب الذى اشتهر بأدواره الكوميدية ثلاثة آلاف دولار ثمناً لكراسة مدرسة مليئة بالأخطاء الإملائية.

الكراسة كانت تخص بوب هوب نفسه وهو تلميذ فى المرحلة الابتدائية وقد اشتراها من شخص وقعت فى حوزته بالمصادفة وبرر ذلك بقوله أنه لا يريد أن يسخر المؤرخون السينمائيون من أخطائه اللغوية. (الجمهورية ٤/ ١٢/ ٨٣).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صلى أعرابى خلفه، فسمعه يقرأ: ﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾ بفتح الباء.

قال: ولا إن آمنوا أيضاً لن ننكحهم! فقيل له: إنه يلحن، وليس هكذا يقرأ. فقال: أخروه قبحه الله لا تجعلوه إماماً. فإنه يحل ما حرم الله.

إن المرء لا يستطيع أن يفهم كتاب الله وسنة رسوله بغير التمكن من اللغة وعلومها.

لقد أخبرنى بعض طلابى أنهم سمعوا من يقول بأن حواء خلق أولا وأن آدم خلق منها بعد. وأن المرأة هى أصل البشرية.

ولما سألت من أين جاء بهذا الكلام؟ قالوا: من القرآن من أول سورة النساء وما شابهها ـ وهنا أدركت سر الخطأ عند هذا المتحدث وهو جهله باللغة فقد قرأ قوله تعالى من فاتحة سورة النساء: ﴿يا أيها الناس اتقوا بكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها...﴾ ففهم منها أن كلمة: ﴿زوجها﴾ تعنى الرجل وهو آدم فى نظره، ولو كان آدم هو المخلوق أولا والمرأة هى التى خلقت منة لقال: خلق منها زوجتها. . وهذا هو المستعمل عرفاً تقول عن الرجل زوج، وعن المرأة زوجة ـ وغفل هذا الرجل أن القرآن يجب أن تفسر كلماته وفقاً لمدلولها اللغوى لا العرفى، لأن العرف دائم التبدل. واللغة التى نزل بها القرآن تسمى المرأة زوجاً كالرجل تماماً. ولهذا قال تعالى فى قصة آدم ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ ولم يقل وزوجتك. وقال فى شأن هاروت وماروت ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ وإنما أتى الرجل من جهله باللغة.

والأدب بشعره ـ ونثره، وأمثاله وحكمه، ووصاياه وخطبه ـ مهم للداعية، يثقف به لسانه، ويجود أسلوبه، ويرهف حسه، ويقفه على أبواب من العبارات الرائقة، والأساليب الفائقة، والصور المعبرة، والأمثال السائرة، والحكم البالغة. ويفتح له نافذة على الروائع والشوامخ، ويضع يده على مئات بل ألوف من الشواهد البليغة التى يستخدمها الداعية فى محلها، فتقع من القلوب أحسن موقع وأبلغه.

وقد جاء فى الحديث: عن ابن عباس رضى الله عنهما. قال: جاء أعرابى إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النبى ﷺ فجعل يتكلم بكلام. فقال رسول الله ﷺ: «**إن من البيان سحرا، وإن من الشعر حُكْماً**»[1]. وسمع النبى ﷺ - الشعر من أكثر من شاعر واستجاده واستزاد منه، وكان من أصحابه شعراء معروفون مثل حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وغيرهم.

أهمية الشعر:

ويأخذ الشعر أهميته فى نفس الداعية بما له من نظم مؤثر - وسهولة فى الحفظ والاستيعاب. تستميل المستمع. بقدر ما تصوغ الحكم والأمثال فى قوالب جذابة مركزة تبقى فى الذاكرة أبداً - ومن ثم يستمر تأثيرها:

إن الكلام إذا حوّل نظما: فرح الحزين، وحرك الرزين.. وقرب من الأمل البعيد[3].

عن أبى بن كعب أن النبى ﷺ قال: «**إن من الشعر حكمة**»[4] كما يقول النبى ﷺ.

(وإنما الوزن من الكلام كزيادة اللحن على الصوت: يراد منه إضافة صناعة من طرب النفس إلى صناعة من طرب الفكر)[5].

لهذا ملنا إلى إيراد الأشعار، والاستعانة بها فى هذه المواعظ، قاصدين أن نضيف إلى المعانى التى يستحسنها فكر الداعية نوعاً من استحسان نفسه لها، ليرسخ المعنى، ويطول تأمله وتذكره.

وليس أدل على أهمية الشعر فى نصر العقائد وترويجها ما كان له من دور فى إسعاف أهل البدع وترويجها لدى العوام، مضادة لمساعى ابن تيمية وتلامذته عندما

---

(١) رواه أبو داود. قال: الحافظ ابن قيم الجوزية والحديث سكت عنه المنذرى. [عون المعبود. شرح سنن أبى داود] جـ١٣. ص٣٥٤. ط. السلفية. الثانية ١٣٨٩ هـ. ١٩٦٩م.

(٢) د. يوسف القرضاوى. ثقافة الداعية.

(٣) خريدة القصر - القسم العراقى: ١/ ٢٠٢.

(٤) رواه أبو داود. قال الحافظ ابن القيم الجوزية: قال المنذرى. وأخرجه البخاى وابن ماجه. [المرجع السابق].

(٥) وحى القلم للرافعى ٣ - ٢٨٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انبروا لتفنيدها ودمغها بحجج السنة الغراء.

(ولا ريب أن منطق ابن تيمية القوى أثر أثره، ولكن جفاف المنطق لا يقوى على مقاومة نضرة الشعر وفتنته) كما يقول شاعر الإسلام محمد إقبال[1].

وهو كما قال، فإن الذى قلل من سريان كلام ابن تيمية فى أوساط العامة هو ما كان عليه أئمة الضلال الداعين إلى البدع من روعة البيان، ورقة الشعر. وتمكنهم فيه، حتى سحروا قلوب الناس بشعرهم من حيث لا يشعرون، ولم يتهيأ لابن تيمية شاعر مبدع يسانده.

إن للشعر هذه القابلية فى إسعاف من يستعمله وتزيين الخطأ أو الصواب، ونصرة الحق أو الباطل. عل حد سواء، فى كل شؤون الفكر وحقائق الحياة، إذ النفس الإنسانية تحب الجمال. والشعر جمال كله. وبإمكانه أن يزيد الحق والصواب نضرة وزهاء ورونقاً ووضوحاً، أو أن يخفى ما يشين صفحة الباطل والخطأ والوهم من خروق ونتوء واعوجاج، فينطلى عيبه بالتزويق. ولا يتخلص من أسرار الشعر وتأثيره إلا قلب عامر بالإيمان عمرانا كافياً.

إن هذه الظاهرة الشعرية هى التى دفعتنى إلى الاستعانة بالشعر فى هذه المواعظ. ولئن كان يقلل من تذوق بعض الدعاة لهذا الشعر العربى الرصين الواضح الذى اخترته، ما أصابهم من هذا الذى أصاب عموم الجيل العربى الجديد من ضعف الحاسة الأدبية، فإني أرجو أن يكون عملى هذا محاولة للارتفاع بهذا الذوق لدى الدعاة. ولئن كان باعى فى الشعر قصيراً، فإن فى إنتاج الثقات غنى وبركة. ولئن كان أكثره منشوراً من قبل. فإن فى هذا الانتقاء تقوية وحفظاً وترويجاً وبعثاً جديداً له.

ولنا اقتداء فى استعمال شعر الرقائق بالإمام أحمد، فقد كان يحفظ شيئاً منه أملاه على ثعلب، الأديب المشهور، وسمعه أصحابه ينشده الشعر، ووقف الشعراء بين يديه أيام محنته يمدحونه، بل تنسب إليه قطعة نظمها فى عتاب على بن المدينى حين لم يصبر معه على العذاب[2].

(١) كتاب محمد إقبال لعبد الوهاب عزام: ٥٢.

(٢) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى: ٢٠٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال له أحد أصحابه: يا أبا عبد الله: هذه القصائد الرقاق التي في ذكر الجنة والنار، أي شيء تقول فيها؟

فقال: مثل أي شيء؟

قال: يقولون:

إذا مـا قـال لـي ربـي أما استحييت تعصيني؟

وتخفى الذنب من خلقي وبالعصيـان تأتينـي؟

فقال: أعدْ عليّ.

قال: فأعدت عليه، فقام ودخل بيته، ورد الباب، فسمعت نحيبه من داخل البيت وهو يقول:

إذا ما قال لي ربي أما استحييت تعصيني[1]

وأما استعارة بعض الأبيات التي قيلت في مدح أناس ثقات من الخلفاء والقادة والكرماء لوصف دعاة الإسلام بها، فذلك مما لا يأباه العرف المأثور عن السلف، ونقتدي بفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سمع أبيات زهير بن أبي سلمى في هرم بن سنان المرّي:

دع ذا وعدَّ القول في هَرِم خير الكهول وسيد الحضر

فقال عمر: ذلك رسول الله ﷺ[2].

وبهذا الإقناع في جدوى الشعر وجوازه: اقتبست الكثير من دواوين القدماء. ثم من دواوين وليد الأعظمي، ومحمود آل جعفر، والأميري، وعبد الوهاب عزام، وغيرهم.

وكذلك أضفت شيئاً من شعر إقبال، شاعر الإسلام الفحل مما في دواوينه: (رسالة المشرق) و(الأسرار والرموز) و (ضرب الكليم). فدخل شعره الأول مرة في المواعظ العربية من بعد ما ترجمه عبد الوهاب عزام.

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي: ٢١٨.

(٢) الأغاني: ١٠/ ٣٠٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإقبال شاعرٍ صحيح العقيدة، عميق الرؤية، سليم التفكير وقد وثقه أبو الحسن الندوى وكرس له دراسة سماها. (روائع إقبال)، كما وثقه المودودى فى مقال مهم نشرته مجلة البعث الإسلامى الهندية[1]، بين فيه فضل إقبال فى توجيه الجيل الذى أسرته الحضارة الغربية، وإبعاده عن ضيق القوميات، وتأكيد صورة الدولة الإسلامية لديه، حتى إن الأستاذ المودودى وصف عمل إقبال بأنه عمل عظيم فى مجال الإصلاح[2].

(١) مجلة البعث، مجلد ١٦ عدد ٤ الصادر فى شوال ١٣٩١ هـ

(٢) محمد الراشد المنطلق ص٢٨ وما بعدها

أفى تعليق لشيخنا العراقى على قول الشاعر

لا لا أبوح بحب بثنة إنها أخذت علىّ مواثقا وعهودا

قال إذا كان شعراء العرب يشترطون لأنفسهم فكيف لا يكون المسلم أشد وفاء بعهده مع ربه سبحانه وتعالى؟!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بين الشعر والنثر[1]

جميع الناس فى عامة كلامهم يتناولون النثر، والشعر عندهم لداعية عارضة. وسبب باعث.

ومن فضل النثر: أن الوحدة فيه أظهر. وأثرها فيه أشهر. والتكلف فيه أبعد.. وهو إلى الصفاء أقرب.

ولا توجد الوحدة غالبة فى شىء إلا دليل حسنه ونقائه والنثر من جانب العقل. والنظم من جانب الحس.

ولذلك دخلت على النظم الآفة. وغلبت عليه الضرورة. واحتيج فيه إلى الإغضاء عما لا يجوز من النثر.

ولكن التوحيدى أنصف النظم حين قال: أن صورة المنظوم محفوظة وصورة المنثور ضائعة.. وأن الشواهد لا توجد إلا فى النظم. والحجج لا تؤخذ الا منه.

فالشاعر هو صاحب الحجة. وإن للشعراء حلية ليس للبلغاء مثلها..

فإذا تتبعت جوائز الشعراء فى مجالسهم وأنديتهم وجدتها خارجة عن الحصر..

الرسول ﷺ والشعر:

عن جابر بن سمرة قال: جالست رسول الله ﷺ أكثر من مائة مرة... فكان أصحابه يتناشدون الشعر. ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية. وهو ساكت. وربما تبسم معهم.

ويقول الشريد: استنشدنى النبى ﷺ شعر أمية بن أبى الصلت وأنشدته[2].

[عمر.. والشعر]

اجتمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأبناء هرم بن سنان. ممدوح شاعر

---

(١) أبو حيان التوحيدى.

(٢) الأدب المفرد. للبخارى: ١٢٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجاهلية «زهير بن أبى سلمى». فاستنشدهم شعر زهير فى مدح أبيهم... فانشدوه... فعلق الخليفة قائلا: ما أحسن هذا المدح! فقالوا: وما أحسن العطاء كذلك الذى جاد به أبونا!.

فقال عمر: ولكن عطاء أبيكم نفد.. وعطاء زهير لا يزال!

رثا «متمم بن نويرة» أخاه مالك بن نويرة «الذى قتل بيد خالد» فلما استنشده «عمر» ذلك الشعر قال:

لقد لامنى عند القبور على البكا رفيقى لتذراف الدموع السوافك

فتأثر به عمر وقال: ليت مثله قيل لأخى زيد بن الخطاب.... وكان قد استشهد فى القتال للإسلام.

فقال «متمم»: ولكن أخى «مالكا» لو قتل كما قتل أخوك لم أبك عليه (هدف مختلف).

فقال عمر: لم يعزنى أحد فى أخى «زيد بن الخطاب» أحسن من هذا العزاء.

حسن تخلص:

قال عالم النحو للواعظ الذى كثر لحنه فى خطبته: أخطأت يا لُحنه!!

فقال الواعظ: العبرة بالأفعال لا بالأقوال!

هلا «جزمت» نفسك عن المعاصى... هلا «نصبت» يدك داعياً ربك... هلا «رفعت» رأسك بين الناس!!

وعندما أخطأ الخطيب فنطق هكذا: (.. من رسول) برفع الرسول متجاهلا حرف الجر.. قال متخلصاً من ورطته: ما أردت «جر» الرسول.. وإنما أردت أن أرفعه!!

وأردت بهذين المثالين أن أؤكد أن التظرف أو حسن التخلص لا يعفى الخطيب من مسؤوليته.. ولا يحتفظ بصورته قوية مؤثرة فى أذهان المستمعين.. وإذ يكسب بهذه الإجابة السريعة ابتسامة عارضة.. فإنه يخسر مكانته.. وينزل عن عرشه.. ولا خلاص له إلا بالتمكن من اللغة سلاحاً يحقق به النصر فى معركته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطويلة الشاقة.

سرعة البديهة:

امتدح أبو تمام الخليفة العباسيّ أحمد بن المعتصم بقصيدة، فلما بلغ إلى قوله:

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال له الكندى بجرأة وثبات: الأمير فوق من وصفت.. فأطرق أبو تمام ملياً ثم قال:

لا تنكروا ضربى له من دونَه مَثَلاً شروداً فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنـوره مَثَـلاً مـن المشكـاة والنبـراس

فسكت الكندى، وأعجبت الفئة الحاضرة لفطنة أبى تمام وأصالة رأيه، وجودة فكره، وسرعة خاطره.

وقد روى أنه نظر فى قصيدة أبى تمام فلم يكن فيها هذان البيتان!

[دور الإعلام]

ولأجهزة الإعلام ـ مرئية ومقروءة ومسموعة.. لها دورها الفعال فى أخذ النشء بعزائم الأمور.. فى هذا البيان تمكينا لملكة البيان.

إنها أجهزة مفروضة على الإنسان.. تطرق عليه الباب. بل وتقتحم عليه فراشه بما تملكه من وسائل. وما تبثه من أفكار وأساليب.

ومن ثم فاختيار أسلوبها ليكون عربياً ملتزماً أوفق بمصلحة شبابنا. لكنها تختار الأسهل الضار. بما تشيعه من تراكيب سمجة لا أساس لها من قواعد اللغة مع وجود البديل فيها.

ويتضح ذلك فى رمضان. وفيما تعرضه من مسرحيات.

ويكفى أن تجرى على لسان الممثلة أو الممثل جملة تقلب.. القاف.. «كافاً» أو «الطاء» «تاء» لتجرى مجرى الهواء على ألسنة الصبيان.. يتغنون بها فى كل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مكان.

وكان المتوقع أن نكون أوفياء لديننا باستغلال غريزة التقليد لدى هؤلاء الصبيان ترويجاً للتعبير العربى البسيط. الجميل فى نفس الوقت.. إعزازاً للغة القرآن.

إن الطبع يسرق كما يقولون. وغريزة التقليد عميقة الأثر فى حياة الناس. وخاصة النشء الغض المستعد للاستجابة.

وأجهزة الإعلام صاحب مفروض كما قلنا.. فلنهيئ للنشء معها صحبة مباركة يستقيم بها لسانه باللغة التى تجمعنا على كلمة سواء.

وللدكتور محمد محمد حسين وجهة نظر تنبثق من إعزازه لغة القرآن.. قال وهو ينعى على الذين يستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير:

[إنهم يعدلون فى أكثر الأحيان عن الفصيح السمح الجميل. إلى السوقى السمج الثقيل:

فى مثل: العسكرى.. حلق عليه.. حطت اللحم فى الحلة..

مبسوط.. شاف.. زيطة.. استغرب. زعلان. ابن الحلال.. بص.. حطها فى القفص.. المخده.. زاحنى فى البحر.. يتزحلق..

ومقابل هذه الكلمات فى الفصيح مشهور خفيف شائع. وهو على الترتيب السابق:

الشرطى.. اعترضه أو وقف فى وجهه.. أو فى طريقه.. وضعت اللحم فى القدر.. مسرور.. رأى.. ضوضاء أو ضجيج أو لقط.. دهش أو عجب.. ابن الكرام.. نظر.. وضعها فى القفص.. الوسادة.. دفعنى إلى البحر.. ينزلق.. هل يرى القارئ مسوغًا لإهمال هذه الكلمات الفصحى التى هى قدر مشترك بين سائر العرب. وأصحاب الثقافات العربية[1]].

وفى سبيل التمكين للذوق العربى يبين الدكتور أهمية الالتزام بالفصحى وليس شرطا أن يفهم الطالب اليوم كل ما يسمعه.. بل المهم أن يسمع الصحيح

---

(١) حصوننا مهددة: ٢٤٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصيح.. وسوف يجنى الثمرة غدا:

[من المسلم به أن الصبى لا يعى كل ما يحفظه وعيا كاملا. ولكن لا ينبغى أن يفوتنا أنه يختزنه إلى أن ينضج عقله. فيستخرج المدخر آنافآنا لتدبره.

ولو سلمنا باستبعاد كل ما لا يستطيع الصبى أن يتدبره فى صباه. لا نبنى على ذلك استبعاد تعليمه أن الأرض كرة. وأنها تدور. واستبعاد تعليمه أن الله سبحانه وتعالى أحد صمد. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد[1]].

إن المسؤولية لتبدو فادحة حين تتصور أن شيوع التعبير الركيك فى مجال الصبا إنما هو نقش على الحجر ومن المستحيل محوه. والفرصة متاحة لنا بتوجيه هذه الأجهزة لما خلقت له.

معلم الخطابة:

وبتتبع ذلك حسن اختيار القائم بتدريس مادة الخطابة فى جامعتنا:

وننبه هنا إلى معنى جدير بالتأمل:

فقد كان الاستعمار يباشر تفوذه فى دائرتين:

الأولى: دائرة تعليم النشء بإبعاده عن لغته وهى سر من أسرار قوته.

الثانية: دائرة تأهيل المربى بإفساد ملكة البيان فيه.. ومتى فسد الذوق اللغوى.. لم يكن هناك جامع يجعل من الأمة جسدًا واحدًا.

والمهم هو فصل الأمة عن مصدر قوتها ومنعتها وهو : القرآن الكريم.

وإذن.. فحسن إعداد الخطيب البليغ تفويت لمكر قديم ما زال يباشر سلطانه حتى الآن. وإن اختلفت الوسائل والعناوين.

ثم هو إتاحة الفرصة لطالب الخطابة أن يعاشر نموذجا للبلاغة والأدب يراه. وينفعل به. وأخيرا يتأثر به..

وإنه فى حياته لمثل الجليس الصالح لابد أن تفيد منه على أى مستوى من

---

(٢) المرجع السابق.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مستويات الفائدة. بقدر ما تنعكس الآية لو لم يحسن اختياره... فقد يكون المدرس عالما بقواعد الخطابة واعيا بكل شاردة فيها وواردة. لكن أسلوبه وطريقة أدائه لا تثير فى الطلاب حماسا إلى تناول هذا اللون من فنون المعرفة.

إنه قادر على تزويد الطالب بأصول الفن.. لكنه لن يجعل منه خطيبا.. لأنه بأسلوبه الركيك يهدم ما يبنيه أولا بأول.

وقليل من القواعد الخطابية.. مع كثير من المقدرة الخطابية أقرب إلى تنشئة جيل من الخطباء يعيشون التجربة مع نموذج حى يملأ عليهم حياتهم..

وأولى مظاهر هذه المقدرة أن يلتزم معلم الخطابة فى أدائه بقواعد اللغة وعلى أوفى ما يكون الأسلوب كمالا وجمالا...على أن تتسع دائرة الالتزام لتشمل هيئة التدريس كلها. لنهيئ المناخ المناسب المعين على نمو ملكة البيان.

مسؤولية الخطباء ومسؤولية الأمة:

وتنبع هذه المسؤولية من سهولة اللغة العربية أولا...ثم من دورها العظيم فى نشر الدعوة الإسلامية وما يترتب على إهمالها من خطر يهدد الفرد والمجتمع.

ومن المفيد أن ننقل هنا ما قاله المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين تنويها باللغة وحضا على إجادتها.

فضل اللغة العربية:

للغة العربية فضل من جهة اعتدال كلماتها، فإنا نجد أكثر ألفاظها قد وضع على ثلاثة أحرف، وأقل من الثلاثى ما وضع على أربعة أحرف، وأقل من الرباعى ما وضع على خمسة أحرف، وليس فى اللغة كلمة ذات ستة أحرف أصلية، وقد جاءت ألفاظ قليلة جدا على حرف واحد أو على حرفين.

ولها فضل من جهة فصاحة مفرداتها، فليس فى كلماتها الجارية فى الاستعمال ما يثقل على اللسان أو ينبو عنه السمع، وللعارف بحسن صياغة الكلام أن يصنع من مفرداتها المأنوسة الوضاءة قطعا أو خطباً أو قصائد تسترق الأسماع وتسحر الألباب. ولعناية العرب بتهذيب الألفاظ زعم قوم أن العرب تعنى بالألفاظ، وتغفل المعانى وهؤلاء هم الذين رد عليهم ابن جنى فى باب مستقل من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاب الخصائص، ومما قال فى هذا الباب: «فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها، وحموا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هى بالألفاظ، بل هى عندنا خدمة منهم للمعانى، وتنويه وتشريف، ونظير ذلك إصلاح الوعاء وتحصينه وتزكيته وتقديسه».

كانت اللغة الفارسية فى الشرق هى التى يمكن بمالها من فصاحة وحسن بيان أن يوازن بينها وبين اللغة العربية. وقد شهد بعض الأعاجم الذين عرفوا اللغتين بأن العربية أرقى مكانة وألطف مسالك.

قال ابن جنى فى الخصائص: «إنا نسأل علماء العربية ممن أصله أعجمى، وقد تدرب قبل استعرابه، عن حال اللغتين، فلا يجمع بينهما، بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك، لبعده فى نفسه، وتقدم لطف العربية فى رأيه وحسه، سألت غير مرة أبا على عن ذلك، فكان جوابه عنه نحوا مما حكيته».

وقد استدل بعض علماء الأدب بما كتبه أرسطو فى الشعر على أن الشعر العربى أرقى من الشعر اليونانى، قال حازم فى كتاب المناهج الأدبية[1].

«ولو وجد أرسطو فى شعر اليونان ما يوجد فى شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع فى فنون الكلام لفظا ومعنى، وتبحرهم فى أصناف المعانى وحسن تصرفهم فى وضعها ووضع الألفاظ بإزائها، وفى إحكام مبانيها واقتراناتها، وطلب التفاتاتهم وتمنياتهم واستطراداتهم وحسن مآخذهم ومنازعهم، وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاءوا، لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية».

هذه شهادات صادرة ممن يعتقدون أن للغة العربية فضلا من وجهة أنها اللسان الذى نزل به القرآن الكريم، وإليك شهادات ممن لا يؤمنون بالقرآن، وإنما ينظرون إلى اللغة من ناحية حسن البيان، قال المستشرق: «أرنست رينان» فى كتابه (تاريخ اللغات السامية).

«من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية، وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمة من الرحل. تلك اللغة التى فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها

(١) توجد نسخة من هذا الكتاب بالمكتبة الصادقية فى تونس.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها. وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم، ومن يوم علمت ظهرت لنا فى حلل الكمال إلى درجة أنها لم تتغير أى تغيير يذكر، حتى إنها لم يعرف لها فى كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة ـ لا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التى لا تبارى، ولا نعلم شبيها لهذه اللغة التى ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج، وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة».

وقد ذكر محاسن العربية وجال لا يعرفون غيرها من اللغات الراقية، وشهدوا لها بأنها أقرب اللغات انطباقا على النظم الطبيعية.

قال المطران يوسف داود الموصلى: «من خواص اللغة العربية وفضائلها أنها أقرب سائر لغات الدنيا إلى قواعد المنطق، بحيث إن عباراتها سلسة طبيعية. يهون على الناطق صافى الفكر أن يعبر فيها عما يريده من دون تصنع وتكلف، باتباع ما يدله عليه القانون الطبيعى، وهذه الخاصية إن كانت اللغات السامية تشترك فيها مع العربية فى وجه من الوجوه، فقلما تجدها فى اللغات المسماة «الهندية الجرمانية» ولا سيما الأفرنجية منها».

لندع الحكم بين اللغة العربية وأى لسان أعجمى لمن يعرف العربية الفصحى ويعرف ذلك اللسان الأعجمى، فهو الذى قد يصغى إليه الناس متى آنسوا فيه الإنصاف، ويتلقون حكمه بالقبول. والذى أقوله وأنا على بينة مما أقول: أن أساليب اللغة العربية أقرب إلى النظم الطبيعية من اللسان الألمانى، فإن فى اللسان الألمانى ضروبا من التصرف يفقد بها الكلام ترتيبه الطبيعى، وليس لهذه الضروب فى العربية الفصحى من شبيه، ففى اللغة الألمانية أفعال مركبة من قطعتين، يضع المتكلم إحدى القطعتين فى أول الجملة ويضع الأخرى عند انتهائها، فالسامع لا يعرف معنى الفعل عندما يسمع القطعة الأولى فى صدر الجملة، ويبقى معه لفظ لا يدرى ما معناه حتى يصل إلى القطعة الملقاة فى آخر الكلام. والمتكلم باللسان الألمانى يأتى فى صدر الجملة بعلامة استقبال الفعل أو مضيه، أما الفعل نفسه فهو آخر ما تسمعه من الجملة، أعنى أنه يأتى بعد المفاعيل والظروف ونحوها. والمتكلم باللسان الألمانى كثيرا ما يورد أداة التعريف ولا يأتيك بالمعرف إلا بعد كلمات أو جمل لها صلة بالمعرف، وقد تلاقيك أداة تعريف ولا تصل إلى المعرف إلا بعد أن تقرأ نحوا من سطر أو سطرين.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن اللغة العربية بحر لا ساحل له. وهى فى حاجة إلى سباح ماهر.. ومع مهارته لن يصل إلى شاطئها مهما خاض وسبح! وعليه أن يسدد ويقارب.

إنها المحاولة.. وبذل الجهد..وهو ما نطالب به شبابنا ليبذلوا جهودهم أولا - وحتى يصلحوا للدعوة - للوقوف على أسرار لغتهم.

ولو لم يكن للغة إلا أنها توصل إلى إعجاز القرآن.. ومعنى النبوة.. وهداية أمر المعاش والمعاد.. لكفى..

قال عمر رضى الله عنه: (تعلموا العربية فإنها دينكم).

وليس المقصود بالتعلم حفظ قواعدها.. لكنه التعمق المعين على فهم القرآن والسنة.. وذلك ما أشار إليه عمر فى خطابه إلى أبى موسى الأشعرى:

(أما بعد: فتفقهوا فى السنة.. وتفقهوا فى العربية).

بل إن العدول عن التكلم بالعربية مع القدرة عليها من شأنه أن يورث النفاق على ما قيل: (من يحسن أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم إلا بالعجمية فإنه يورث النفاق).

بل إن فقه العربية والإحاطة بها من صميم العبادة والتقصير فيها مؤد بالمسلم إلى الوقوع فى معصية لا يجاب معها الدعاء.

ومن هنا قال الشاعر المسلم جاعلا من اللحن مانعا من قبول الدعاء:

يناجى ربه ليث بلحـــن كذاك إذا دعاه لا يجيب!!

وقد فهم أعداء الإسلام ذلك عندما جعلوا اللغة الأجنبية يوما لغة التعليم والتعامل الرسمى فى مصر والسودان والعراق وفلسطين.

وعندما مكنوا لهذا المخطط بإنشاء المدارس التبشيرية صرفا للأمة عن لغتها وهى السبيل إلى فهم كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ.

لقد كانت اللغة العربية عونا على فهم كثير من الأحكام... ووضع كثير من القواعد: